الزيارة المدهشة

هربرت جورج ويلز

الزيارة المدهشة

تأليف
هربرت جورج ويلز

ترجمة
هشام محمود مغازي شعير

مراجعة
نبيل العدلي

هنـــداوي

الزيارة المدهشة

The Wonderful Visit

هربرت جورج ويلز

Herbert George Wells

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونديسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٨ ٢٢٤٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٨٩٥.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

ليلة الطائر الغريب	٩
وصول الطائر الغريب	١١
اصطياد الطائر الغريب	١٣
الكاهن والملاك	١٧
هامش عن الملائكة	٢٥
في منزل الكاهن	٢٧
رجل العلم	٣٣
مساعد الكاهن	٣٩
بعد العشاء	٤٧
الصباح	٥٧
الكمان	٥٩
الملاك يستكشف القرية	٦١
رؤية السيدة هامرجالو	٧١
مغامرات أخرى للملاك في القرية	٧٥
اتساع رؤية السيدة جيهورام	٨١
حادث بسيط	٨٥
أصل الأشياء وجوهرها	٨٧
الظهور الأول للملاك	٨٩
مشكلة السلك الشائك	١٠١
ديليا	١٠٥

الدكتور كرامب يتدخَّل ١٠٧
تدخُّل السيد جون جوتش ١١٣
على الجرف ١١٧
تدخُّل السيدة هينجير ١١٩
الملاك في مأزق ١٢٣
اليوم الأخير في الزيارة ١٢٧
خاتمة ١٣٥

تخليدًا لذكرى صديقي العزيز
والتر لو.

ليلة الطائر الغريب

١

في تلك الليلة شاهد كثيرون من أهل سيدرتون (وبعض المناطق المجاورة) وهجًا على مستنقع سيدرفورد، ولكن لم يره أحدٌ من أهل سيدرفورد نفسها؛ إذ كان معظمهم يَغُطُّون في النوم.

كانت الرياح تهبُّ طوال اليوم، فظلت القُبَّرات تحوم قريبًا من أرض المستنقع وتزقزق في اضطراب، فإذا تجاسرت إحداها على الارتفاع كنسَتْها الرياح من جوِّ السماء كما تكنس ما يفترش أرضَ الغابة من ورق الشجر. ثم غربت الشمس تاركةً وراءها كتلًا من السحب المصطبغة بلون الدم، وحلَّ ليلٌ داكن لم يُضِئه نور القمر. أما ذلك الوهج فقد ظهر كشعاعٍ ذهبيٍّ يلمع في ظلمة الليل في منحنياتٍ تظهر وتختفي كالتماع أنصال سيوفٍ مُصلَتة، ظهر لحظةً ثم غاب مرةً أخرى؛ فاستعاد الليل لونه الداكن وغموضه المُلغِز. كُتِب عن ذلك الوهج في مجلة «نيتشر»، ورُسم له شكلٌ تقريبي لم يجده أحد ممن رأوا الوهج مشابهًا له (يمكنك الاطلاع على ذلك الرسم الذي لم يشبه الوهج بنفسك في الصفحة ٤٢ من العدد ٢٦٠ من المجلة).

لم يرَ أحد من أهل سيدرفورد الوهج، لكن آني زوجة هوكر دورجان كانت مستيقظة، فرأت انعكاسًا للونه الذهبي يتراقص على الحائط.

وكانت آني ممن سمعوا الصوت أيضًا. كما سمعه لامبي دورجان الأبله، وأم آموري. قالوا: إن الصوت كان يشبه صوت لهو الأطفال وخفقان أوتار القيثارة وفق نوتة موسيقية متسارعة مثل الذي يصدر أحيانًا عند الضغط على مفاتيح آلة الأرغن، وإن الصوت بدأ واختفى كصوتِ فَتْح باب ثم غَلْقه، ولم يسمعوا قبله سوى صفير رياح الليل فوق المستنقع

والأصوات القادمة من كهوف جرف سيدرفورد. قالت أم آموري إنها كادت تبكي عندما سمعت الصوت، أما لامبي فقد تمنَّى أن يسمع المزيد منه.

هذا كل ما يمكن لأحدٍ قوله عن الوهج الذي ظهر على مستنقع سيدرفورد والموسيقى التي زُعم أنها صاحبته. ولا أعرف إن كان لهذا الوهج أو تلك الموسيقى صلةٌ بذاك الطائر الغريب الذي سآتي على ذكره. ولكني ارتأيت ذكرهما لأسباب سيكشف عنها تتابع أحداث القصة.

وصول الطائر الغريب

٢

كان ساندي برايت قادمًا في الطريق من سبينرز حاملًا معه شريحةً من لحم الخنزير كان قد قايضها بساعة حائط. لم يرَ الضوء، لكنه سمع الطائر الغريب ورآه؛ فقد سمع صوت رفرفةٍ مفاجئة يخالطه صوتٌ كعويل امرأة، فارتاع منه على الفور؛ إذ كان وحيدًا سريع التوتر. التفت ساندي (مرتجفًا) فرأى كائنًا كبيرًا أسود اللون بين أشجار الأَرْز التي تغطِّي التلَّ في حين كان الظلام يسدل عليها ستائره شيئًا فشيئًا. بدا الكائن كما لو كان على وشك الانقضاض عليه، فأسقط اللحم من يده من فرط الاضطراب وهمَّ بالفرار، بيد أنه سرعان ما تعثَّر وسقط أرضًا.

هداه عقله إلى تلاوة بعض الصلوات، ولكن توتُّره أعجزه عن تذكُّرها. رفرف الطائر الغريب فوقه؛ فوجده يفوقه حجمًا، ووجد امتداد جناحَيْه عظيمًا، ولونه أسود، أو هكذا خالَه. صرخ ساندي واستسلم لمصيره، لكن الطائر تجاوزه وأكمل طيرانه نحو سفح التل، وحلَّق فوق بيت كاهن الكنيسة، ثم اختفى بين الضباب الذي غمر الوادي في الطريق إلى سيدرفورد.

ظل ساندي برايت لوقتٍ طويل مستلقيًا على بطنه في مكانه، يُحدِّق في الظلام في أثر الطائر الغريب. وأخيرًا قام على ركبتَيه وأخذ يشكر الرب على إنقاذه، في حين ظلَّت عيناه معلقتَين بسفح التل، ثم مضى في طريقه إلى التل، وأخذ يُخاطب نفسه بصوتٍ عالٍ ويستذكر ذنوبَه خائفًا من عودة الطائر الغريب؛ حتى إن كل من سمعوه حينئذٍ ظنوه ثملًا. غيَّرته تلك الليلة؛ فأقلع عن السُّكْر وعن عادته في بيع المصوغات الفضية بدون ترخيصٍ

للتهرُّب من الضرائب. ظلَّت شريحة اللحم على جانب التل حتى وجدها أحد الباعة من بورتبردوك صباح اليوم التالي.

كان الشخص التالي الذي رأى الطائر الغريب كاتبًا لدى أحد المحامين في إبينج هانجر، كان يصعد التل قبل الإفطار ليشاهد شروق الشمس. لم يتبقَّ في السماء من السحاب بعد الرياح التي ظلت تهبُّ في الليلة الماضية إلا نتفٌ متفرقة. اعتقد الرجل للوهلة الأولى أن ما رآه كان نسرًا. كان الطائر بعيدًا عنه للغاية وقريبًا من القمة، بدا كنقطةٍ فاتحة اللون فوق بقايا السحاب الوردية، كأنه رفرف بجناحَيْه وارتفع حتى ارتطم بأديم السماء، مثلما يرتطم طائر السنونو بزجاج النافذة. ثم هبط نحو الأرض في منحنًى ضخمٍ باتجاه بورتبردوك فوق هانجر، واختفى وراء أشجار حديقة سيدرمورتون. كان حجمه يفوق حجم رجلٍ، حسبما بدا للرجل. وقبل أن يختفي أضاءت أشعة الشمس جانب التل وسقطت على جناحَيه فالْتمعا كلهبٍ متوهِّج تتخلَّله ألوان الأحجار الكريمة، ثم اختفى الطائر وترك الرجل فاغرًا فاه.

وكان أحد المزارعين في طريقه إلى عمله، فمرَّ بالجدار الصخري لحديقة سيدرمورتون، ورأى الطائر الغريب يلتمع فوقه للحظة ثم يختفي بين أشجار الزان، ولكنه لم يرَ من لون الجناحَين إلا القليل، كل ما لاحظه أن قدمَيه كانتا طويلتَين ووورديتَين تُشبهان اللحم المنزوع الجلد، وأن جسمه كان مغطًّى ببقعٍ بيضاءَ. اخترق السماء كالسهم ثم اختفى.

كان هؤلاء الثلاثة أول من شاهدوا الطائر الغريب.

لم يكن المرء في تلك الأيام ليجثو مُحتميًا من الشيطان أو يشاهد جناحَين تتغيَّر ألوانهما وتتألَّق في ضوء الفجر كذَيْنك الجناحَيْن بدون أن يُحَدِّث بما رآه فيما بعدُ. فالكاتب الشاب الذي يعمل في مكتب محاماة أخبر أمه وأختَيْه بما رأى على مائدة الإفطار، وفي طريقه إلى عمله في بورتبردوك قصَّ القصة على حداد هامبربوند، ثم قضى الصباح يتحاكى مع زملائه بالأمر ويتعجَّبون منه بدلًا من نسخ الدفوع القانونية. أما ساندي برايت فقصد السيد جيكل — خادم الكنيسة البسيط الحال — ليخبره بالأمر، وأخبر المزارع هيو العجوز ثم كاهن كنيسة سيدرم.

قال كاهن سيدرمورتون: «لا توجد كائناتٌ خيالية في الجوار، إنني أتساءل إلى أي مدًى يُعد هذا صحيحًا، لولا أنه يظن أن الجناحَين بُنِّيان لَقلتُ إن ما رآه هو طائر الفلامنجو العادي.»

اصطياد الطائر الغريب

٣

كان كاهن سيدرمورتون (التي تبعد عن سيدرماوث تسعة أميال إذا سُلك أقصر الطرق) عالم طيور في الوقت ذاته. وكان لا بد لرجلٍ أعزب في وضعه من اهتمامٍ بمثل الطيور أو النباتات أو الآثار القديمة أو الفولكلور. كما كان مهتمًّا بالهندسة كذلك، واعتاد الكتابة عن بعض المُعضلات الهندسية العصِيَّة على الحل في مجلة «إديوكيشنال تايمز»، بيد أن الطيور كانت شغفه الأوحد. كان قد أضاف نوعَين من الطيور إلى قائمته للطيور التي تزور بريطانيا لِمامًا. كما كان اعتاد قرَّاء دورية «زولوجيست» رؤية اسمه فوق الأعمدة التي تكتب فيها (وإن كان اسمه — الذي كان مألوفًا يومًا ما — قد نُسي الآن مع مرور الزمن). وفي اليوم التالي لظهور الطائر الغريب، تقاطر الناس يؤكدون صحة ما روى المزارع، ويتحدثون عن الوهج الذي ظهر فوق مستنقع سيدرفورد، بدون أن يربطوا بين هذا الطائر وذلك الوهج.

كان لكاهن سيدرمورتون منافسان في مساعيه العلمية؛ جالي، وهو من سكان سيدرتون، ورأى الوهج بنفسه، وأرسل الرسم إلى مجلة «نيتشر»؛ وبورلاند المهتم بالتاريخ الطبيعي، وكان لديه مختبرٌ لفحص الأحياء البحرية في بورتبردوك. رأى الكاهن أن بورلاند كان يجب أن يهتم بكائناته البحرية المجذافية الأرجل دون غيرها، لكنه كان يهوى تحنيط الحيوانات كذلك، واستغلَّ موقعه الساحلي في جَمْع الطيور البحرية النادرة. لم يخفَ على أحدٍ من المهتمين بجمع الحيوانات والطيور أن هذين الرجلَين سيبحثان عن الزائر الغريب في أنحاء البلاد قبل مرور أربع وعشرين ساعة.

كان الكاهن جالسًا في مكتبه، ووقعت عيناه على موسوعة سوندرز للطيور البريطانية، تفقَّدها فوجد فيها في موضعَين ما يلي: «عثر الموقر كيه هيليار، كاهن سيدرمورتون، على الطائر الوحيد الذي وُجد منه في بريطانيا.» ولم يتفوَّق عليه جامعُ طيورٍ آخر، بإدراج اسمه ثلاث مرات في الموسوعة، على حدِّ علمه.

تفقَّد الكاهن ساعته، فوجدها تشير إلى الثانية. كان قد تناول غداءه للتوِّ، وكان معتادًا على الاستراحة في فترة الظهيرة. كان يعلم أن أشعَّة الشمس قد تُزعجه لو خرج في هذا الطقس القائظ، لكنه رجَّح أن يكون جالي الآن في الخارج يتفقَّد الأرجاء، ماذا لو كانت هناك لُقيةٌ فريدةٌ ووجدها قبله؟!

كانت بندقيته في زاوية المكتب (وخاطب نفسه بأن ذلك الشيء كان له جناحان تتغيَّر ألوانهما حسب زاوية النظر، وقدمان ورديَّتان، فأثارت تلك الألوان في نفسه حماسًا شديدًا). أخذ البندقية.

في الظروف الطبيعية، كان يخرج من باب الشرفة الزجاجي، ثم يهبط إلى الحديقة ويعبرها إلى طريق التل، ليتوارى عن أنظار مدبرة منزله؛ إذ كان يعلم أن خروجه حاملًا البندقية يثير الامتعاض، لكنه رأى زوجة الخوري وابنتَيها قادمتَيْن نحوه من الحديقة يحملْنَ مضارب تنس. كانت زوجة الخوري شابةً قوية الإرادة، اعتادت لعب التنس في حديقته وقطف أزهارها، وكانت تختلف معه في بعض المسائل العقائدية، وتنتقد سلوكه في جميع أرجاء الأبرشية. فأصبح يهابها ويحاول استرضاءها، بدون أن يتخلَّى عن ولعه بالطيور.

حينئذٍ خرج الكاهن من الباب الأمامي.

٤

لولا هواة جمع الطيور والحيوانات والنباتات لَزخرَتْ إنجلترا بالطيور النادرة والفراشات المتألِّقة والزهور البديعة والكثير من الأشياء الجميلة، لكن الجامعين حالوا دون ذلك بقتل هذه الكائنات بأيديهم أو شرائها ببذخ، أو تكليف أبناء الطبقات الاجتماعية الدنيا بقَتْلها حال ظهورها. فكان جمع تلك الكائنات عملًا يمتهنه البعض رغم حظر البرلمان له. وهكذا كانوا يُسهمون في انقراض الغراب الأعصم في كورنوول، وفراشات باث البيضاء، والفراشات الملكية الإسبانية، ويتباهَوْن بتسبُّبهم في انقراض طائر الأوك العظيم، والمئات من الطيور والنباتات والحشرات النادرة الأخرى، لا لسببٍ إلا ليرضي هؤلاء الجامعون غرورهم باسم

العلم. الحقيقة — كما ينبغي أن تكون — أن الخروج عن المألوف يؤدِّي إلى الخلود، فكِّر في الأمر مجددًا إن لم توافق على هذا الرأي الآن، كما أن الخروج عن المألوف من الأفكار جنونٌ (وأتحداك أن تجد تعريفًا أنسب لأيهما من الآخر) فإذا كان النوع النباتي أو الحيواني نادرًا، فهذا يعني أنه غير مهيأ للبقاء؛ فالجامعون — في نهاية المطاف — كجنود المشاة الذين يترجَّلون عن المدرعات لجزِّ أعناق من يسقط من جند العدو عن مركبته. بحيث يمكن للمرء أن يجوب أنحاء إنجلترا من أقصاها إلى أقصاها في يومٍ صيفيٍّ صحو فلا يصادف إلا ثمانية أو عشرة أصناف من الزهور البرية والفراشات الشائعة، وحوالي اثني عشر من الطيور المعتادة، بدون أن يخرج شيءٌ عن الرتابة المعتادة، فلا لون لزهرةٍ غريبة، ولا رفرفة لجناح طيرٍ مجهول. فكل ذلك قد «جُمع» منذ سنوات مضت؛ لذا يجدر بنا جميعًا أن نحبَّ هؤلاء الجامعين، وأن نقرَّ بأننا مدينون لهم عندما يَعرِضون ما جمعوه. فأدراجهم المشبعة بالكافور، وعلبهم الزجاجية، وكتبهم المصنوعة من الورق النشاف، هي قبور النادر والجميل من الكائنات، ورموز الانتصار (وقضاء وقت الفراغ في التلذُّذ المشروع) بمتع الحياة (ربما لاحظ قارئ هذه السطور أن كل ذلك لا علاقة له بذلك الطائر الغريب).

٥

ثمة بقعة في المستنقع تلتمع فيها المياه السوداء بين النباتات الحزازية الخضراء الناضرة، وتفتح فيها النباتات الندية الآكلة للحشرات الهائمة أيديها الحمراء كما لو كانت تتضرع إلى الرب، الذي قضى أن يكون بعض مخلوقاته طعامًا للبعض الآخر، أن يرسل إليها فريسة تسدُّ جوعها. وتقوم على أحد امتدادات تلك البقعة أشجار البتولا ذات اللحاء الفضي، ويتداخل اللون الأخضر الفاتح لأوراق شجر اللاركس مع الأخضر الداكن لشجر التنوب. مرَّ الكاهن بين أشجار الخَلَنْج المحاطة بنحل العسل في قيظ الظهيرة حاملًا بندقيته تحت ذراعه محشوَّةً بطلقات أعدَّها لاصطياد الطائر الغريب، وفي يده الأخرى منديل جيب ظل يمسح به بين الفينة والأخرى العرق الذي ينسال على وجهه.

عَبَر البركة الكبيرة ثم كومة من الأوراق البُنِّية، ومضى في طريقه (الذي كان جزء منه رمليًّا وجزءٌ آخر مكسوًّا بالحصى) حتى وصل إلى البوابة الصغيرة التي تؤدي إلى الحديقة. ثمة خمس درجات تصعد إلى البوابة، وست درجات تهبط منها على الجهة الأخرى، هكذا صُنعت لتمنع هروب الغِزْلان. فعندما وصل الكاهن إلى البوابة كان رأسه يرتفع عن الأرض

بعشر أقدام ونيف. نظر نحو تجمع من أوراق السرخس تملأ فجوةً بين مجموعتَين من شجر الزان، فوقعت عيناه على شيءٍ متعدد الألوان اضطرب للحظة ثم اختفى. فارتسمت ملامح التأهُّب على وجهه وتحفزت عضلاته، وأخفض رأسه وأمسك ببندقيته بكلتا يديه ووقف ساكنًا في مكانه. وبينما اتسعت حدقتاه تراقبان المكان، نزل الدرج المؤدي إلى الحديقة ممسكًا ببندقيته لم يزل، ثم تحرك نحو أوراق السرخس متسللًا.

لم تصدر أي حركة، فظن أن عينَيه خدعتاه، حتى وصل إلى السرخس ووقف هنالك متحفِّزًا. وفجأة تحرك شيء ذو ألوانٍ متألقة على بُعد عشرين ياردةً على الأكثر، وأخذ يضرب الهواء. وسرعان ما طار فوق أوراق السرخس باسطًا جناحَيه على اتساعهما. رأى الكاهن ذلك فاضطرب بشدة وفي غمرة المفاجأة وبحكم العادة أطلق الرصاص.

انطلقت صرخة ألم غريبة، وضرب الجناحان الهواء مرتَين، ومال الطائر الجريح بجسمه في طريق سقوطه حتى ارتطم بالأرض، ثم تكوَّم على الأرض وظل يتلوَّى على المنحدر المغطَّى بالعشب بجناحٍ مَهِيض وريشٍ دامٍ.

وقف الكاهن مشدوهًا ينبعث من فوَّهة بندقيته الدخان. لم يكن ما أصابه طائرًا من أي نوع، بل شابًّا ذا وجهٍ بالغ الجمال، يرتدي ثوبًا من الزعفران وله جناحان متعددا الألوان؛ القرمزي والأرجواني والأخضر المائل للون الذهب والأزرق الصريح. وأخذت هذه الألوان تتغيَّر وتتمايز وهو يتلوَّى من الألم. لم يسبق للكاهن رؤية شلال الألوان المتألق هذا، لا على زجاج النوافذ المبتلِّ، ولا على أجنحة الفراشات، ولا حتى في المنشور البلوري، ليس على الأرض ألوانٌ تضاهي هذه الألوان. قام الملاك عن الأرض على مرتَين، ثم سقط مجددًا. خبت رفرفة جناحَيه، وشحب وجهه المذعور، وهدأ شلال الألوان، ثم شهق وخرَّ على الأرض مستسلمًا، واستحالت درجات الألوان المتغيرة تلك لونًا واحدًا رماديًّا كئيبًا.

صاح الملاك المصاب: «يا للهول! ماذا حدث لي؟» وظل يرتعد بقوة، ويداه ممدودتان تتشبثان بالأرض، ثم تمدَّد على الأرض خامدًا.

صاح الكاهن: «يا إلهي! لم أكن أعلم.» ثم تقدَّم بحرصٍ وأعلن ما كان واضحًا: «أستميحك عذرًا، يؤسفني أنني أصبتك.»

بدا أن الملاك ينتبه إلى وجود الكاهن للمرة الأولى، ثم قام مستندًا إلى يدٍ واحدة، وحدق بعينَيه البُنِّيتَين إلى عينَي الكاهن. ثم شهق وعضَّ على شفته السفلى محاولًا الاعتدال إلى وضع الجلوس، وأخذ يفحص الكاهن بنظره من رأسه إلى أخمص قدمَيه.

أمسك الملاك بجبينه وصاح: «رجل! رجل بملابسَ سوداءَ غريبةٍ لا تكسو جسمَه ريشةٌ واحدة، إذن فعيناي لا تخدعانني، لا بد أني في أرض الأحلام بالفعل!»

الكاهن والملاك

٦

بعض الأشياء مستحيلة فحسب، وهذا الموقف أحدها، لا يتطلب إدراك ذلك الكثير من الذكاء. أغلب الظن أن محرِّري مجلة «ذا أثينيام» سيكونون من هذا الرأي إذا اعتزموا الكتابة عن ذلك الموقف. قد يقبل العقل سقوط أشعة الشمس على أوراق السرخس، أو أشجار الزان المنتشرة، أو حتى الكاهن وبندقيته، لكن ذلك الملاك شأنٌ آخر. يندر أن يواصل الشخص المتعقِّل العادي قراءة مثل هذه الغرائب. أدرك الكاهن ذلك، ولكنه أحجم عن اتخاذ القرار في أول الأمر، ثم حزم أمره بعد ذلك كما ستكشف السطور التالية. كان الجو حارًّا، ومضى وقت تناول العشاء، ولم يكن في مزاج يسمح له بالتفكير المتأني. حينما حدث ما حدث كان الملاك فارضًا سطوته عليه، كما أبهره بالألوان المبهرجة والرفرفة المضطربة، فلم يتسنَّ للكاهن أن يُسائل نفسه عما إذا كان ما يراه في حدود الممكن أم ضربًا من المستحيل، بل أرغمه اضطراب اللحظة على التعامل معه فحسب؛ فأطلق النار. فليضع محرِّرو مجلة «ذا أثينيام» أنفسهم مكانه؛ يخرج للصيد، فيصيب شيئًا — وهذا وحده يكفي لإثارة الاضطراب في النفس — ثم يكتشف أنه أصاب ملاكًا، يتلوَّى الملاك من الألم لدقيقةٍ تقريبًا، ثم يجلس الملاك ويخاطبك، كما لو لم يكن في كل ذلك شيءٌ غريب يُذكَر. بل أيضًا يجعلك أنت — لا هو — محور الحديث، بأن يقول متعجبًا: «رجل! رجل بملابسَ سوداءَ غريبةٍ لا تكسو جسمه ريشةٌ واحدة، إذن فعيناي لا تخدعانني، لا بد أني في أرض الأحلام بالفعل!» لا يمكنك حينئذٍ — إن لم تلُذْ بالفرار — إلا الرد عليه، أو أن تحسم الجدل كله بأن تطلق النار مرةً ثانية، فتفجِّر دماغه.

ردَّ الكاهن: «أرض الأحلام! أخشى أنك خرجت منها لتوك.»

قال الملاك: «كيف ذلك؟»

رد الكاهن: «جناحك، إنه ينزف، هلَّا منحتني شرف تضميده؟ أعتذر لك من صميم قلبي ...» مد الملاك يده خلف ظهره وقطَّب.

ساعد الكاهن ضحيته على القيام، في حين التفت الملاك نحوه. أخذ الكاهن يتفحص الجناحَين المصابَين ويصدر الكثير من الأصوات تأثرًا بمنظر الإصابة (لاحظ أن الإصابة طالت حُقًّا إضافيًّا على الطرف العلوي الخارجي للوح الكتف. أما الجناح الأيسر فقد سقط بعض ريشه فحسب، كما طالت المقذوفات جزءًا طرفيًّا منه، وتهشَّم العضد الأيمن). أوقف الكاهن النزيف قدر استطاعته بمنديل جيبه ووشاح رقبته الذي كانت مدبرة منزله تحثه على أن يحمله معه مهما كانت حالة الطقس.

قال الكاهن وهو يتحسَّس العظمة: «يؤسفني أن أخبرك بأنك لن تتمكن من الطيران لبعض الوقت!»

قال الملاك: «لا أحب هذا الإحساس الجديد.»

رد الكاهن: «أتقصد الألم الذي تشعر به عندما ألمس عظمتك؟»

قال الملاك: «ماذا تدعوه؟»

قال الكاهن: «الألم.»

رد الملاك: «تدعونه الألم إذن، لا يعجبني على الإطلاق، هل لديكم الكثير منه في أرض الأحلام؟»

قال الكاهن: «لدينا قدرٌ كافٍ منه، أهو جديد عليك؟»

رد الملاك: «جديدٌ تمامًا، ولا يعجبني.»

قال الكاهن: «غريب!» وعضَّ على طرف شريط من الكتان لربط عقدة. وقال: «لا بد أن هذه الضِّمادة تَفِي بالغرض في الوقت الراهن، سبق أن درستُ أعمال الإسعاف، لكن لم يسبق لي تضميد جرح جناح. هل بدأ الألم يخف؟»

رد الملاك: «أصبح ثابتًا الآن، كان يخفق كالنبض قبل ذلك.»

قال الكاهن وهو لم يزل يعتني بالجرح: «سيظل هكذا لبعض الوقت مع الأسف!»

هزَّ الملاك جناحه، والتفت ينظر إلى الكاهن مجدَّدًا. كان يحاول متابعة الكاهن بنظره خلال حديثهما. راقبه من رأسه إلى أخمص قدمَيه رافعًا حاجبَيه وراسمًا على وجهه الجميل ذي الملامح الهادئة ابتسامةً خفيفة. وقال: «غريبٌ للغاية أن أتحدَّث إلى إنسان!»

رد الكاهن: «أتعلم؟ عندما أفكِّر في الأمر، أجد تحدُّثي مع ملاك على القدر نفسه من الغرابة؛ فأنا شخصٌ واقعي إلى حدٍّ ما، هكذا ينبغي للكاهن أن يكون، ولطالما اعتبرت الملائكة مجرد تصور فني.»

قال الملاك: «هذه بالضبط فكرتنا عن البشر.»

رد الكاهن: «لكن لا بد أنك رأيت الكثير من البشر.»

قال الملاك: «لم يسبق أن رأيتهم قبل اليوم، رأيتهم كثيرًا في الصور والكتب فقط، لكني رأيت الكثير منهم منذ شروق الشمس، رجالًا بشريِّين حقيقيين، وحصانًا واحدًا على الأقل، لدينا شبيه له لكنْ له قَرن، وعددًا كبيرًا من هذه الأشياء الضخمة السمينة التي تُدعى أبقارًا. انتابني بعض الخوف لرؤية كل هذه الوحوش الخرافية، وجئت أختبئ هنا حتى حلول الظلام. أفترض أن الظلام سيحلُّ مجدَّدًا بعد قليل كما كان الجو مظلمًا قبل ذلك. يا للعجب! هذا الشيء الذي تسمونه الألم مزعجٌ حقًّا. أتمنى أن أستيقظ من هذا الحلم قريبًا.»

عقد الكاهن حاجبَيه وضرب جبينه براحة يده وقال: «لا أفهمك جيدًا، وحوش خرافية؟!» وحتى ذلك الحين كان أسوأ ما نُعت به الكاهن (من جانب أحد دعاة فصل الكنيسة عن الدولة) أنه رجل من العصور الوسطى. تابع الكاهن: «هل معنى ذلك أنك تعتبرني جزءًا من حلم؟»

رد الملاك مبتسمًا: «بالتأكيد.»

قال الكاهن: «ماذا عن العالم من حولي؟ بأشجاره الباسقة ونباتاته المنتشرة؟»

رد الملاك: «كل هذا يبدو كالحلم، هذا بالضبط ما قد يحلم به أحدنا، أو ما ينسجه خيال الفنانين.»

قال الكاهن: «لديكم فنانون إذن بين الملائكة؟»

رد الملاك: «في كل ألوان الفنون، وهناك فنانون ذوو خيالٍ واسع يبتكرون البشر والأبقار والنسور والكثير من المخلوقات الأسطورية.»

قال الكاهن: «المخلوقات الأسطورية؟!»

رد الملاك: «نعم، مخلوقاتٌ أسطورية، خرافات.»

قال الكاهن: «لكني حقيقيٌّ، أؤكد لك.»

رفع الملاك جناحَيه وقطَّب ثم ابتسم وقال: «يمكنني أن أُميِّز أحلامي عن الواقع دائمًا.»

قال الكاهن: «أنت تحلم!» ثم نظر حوله.

وكرر وقد ارتبك عقله: «أنت تحلم!»

مدَّ يده وحرَّك أصابعه ثم قال: «وجدتها! بدأت أفهم!» خطرت له فكرةٌ رائعة، لم تذهب دراسته للرياضيات في كامبريدج هباءً، تابع الكاهن: «أخبرني إذن بأسماء بعض الحيوانات من عالمك أنت، العالم الحقيقي، حيوانات حقيقية تعرفها.»

رد الملاك مبتسمًا: «حيواناتٌ حقيقية؟ هناك حيوانات الجريفين والتنانين والجابروووك والتشيروبيم وأبو الهول والهيبوجريف وحوريات البحر والساتير و...»

قاطعه الكاهن قائلًا: «شكرًا لك، هذا يكفي، بدأت أفهم الأمر.» وبدا أن الملاك قد بدأ ينفتح معه في الحديث.

صمت لبرهة وبدا عليه التفكير ثم قال: «نعم، بدأتُ أفهم الأمر حقًّا.»

قال الملاك: «بدأتَ تفهم ماذا؟»

رد الكاهن: «حيوانات الجريفين والساتير وهذه الحيوانات الأخرى، الأمر واضح ...»

قال الملاك: «لا أفهم.»

قال الكاهن: «الأمر أنها لا يمكن أن تُرى في هذا العالم، لكن أصحاب الخيال الواسع من جنسنا أخبرونا بكل شيء عنها، حتى أنا في بعض الأحيان، هناك أماكن في هذه القرية لا يسعك إلا أن تأخذ ما تجده فيها؛ كي لا تثير حفيظة أحد. لقد رأيت حيوانات الجابروووك في أحلامي، ووحوش البوجل، ونباتات الماندريك ... تعتبر هذه الأحياء من وجهة نظرنا من مخلوقات الأحلام.»

قال الملاك: «مخلوقات الأحلام! يا للغرابة! يا له من حلمٍ عجيب! حلم معكوس! تعتبر البشر حقيقيين والملائكة خرافة. هذا يجعلني أتخيل أنه لا بد أن يكون هناك عالمان ...»

رد الكاهن: «عالَمان على الأقل.»

تابع الملاك: «عالَمان متقاربان، ولا يكاد أحد فيهما يدرك ذلك.»

قال الكاهن: «متقاربان كوجهَي ورقة في كتاب.»

رد الملاك: «عالَمان يخترق كلٌّ منهما الآخر، ويعيش كلٌّ منهما حياةً منفصلة، يا له من حلم عجيب!»

قال الكاهن: «ولا يحلم أحد في أيهما بالعالم الآخر.»

رد الملاك: «إلا عندما يتعمَّد البشر الحُلم.»

وتابع متفكرًا: «نعم، لا بد أن هذه هي الحقيقة. وهذا يذكرني بأني عندما يغلبني النعاس في بعض الأحيان أغفو تحت حر شمس الظهيرة، أشاهد أشكال وجوهٍ محزَّزة كوجهك تمر بالقرب مني، وأشجارًا ذات أوراقٍ خضراء، وأرضًا غريبة غير مستوية كهذه الأرض، لا بد أني وقعت في عالمٍ آخر.»

رد الكاهن: «في بعض الأحيان، عندما أكون بين الصحوة والنوم، أرى وجوهًا بجمال وجهك، وصورًا مُبهرةً غريبة من مشاهدَ عجيبةٍ أكبر، أرى هذه الصور تطفو بجواري، وأرى كائناتٍ مجنحة، وأشكالًا رائعة، وأخرى كريهة، تغدو وتروح، حتى إنني سمعت أنغام موسيقى جميلة، يبدو أننا عندما نصرف انتباهنا عن العالم المحيط بنا الذي تدركه حواسنا، عندما نستسلم للراحة التامة، تظهر عوالمُ أخرى، كتلك التي نتخيَّلها عندما نراقب النجوم، بعد أن ينحسر ضوء النهار. والحالمون أصحاب الحسِّ الفني هم من يرون هذه العوالم بوضوح يفوق غيرهم.»

نظر كلٌّ منهما إلى الآخر.

وقال الملاك: «وعلى نحوٍ غير مفهوم، خرجت أنا من عالمي ووقعت أنا في عالمك هذا! عالم الأحلام، وقد أصبح حقيقة.»

ثم نظر حوله وكرر: «عالم أحلامي!»

قال الكاهن: «الأمر مُحيِّر، هذا يجعل المرء يعتقد في وجود (احم) أربعة أبعاد في نهاية المطاف، وفي هذه الحالة ...» وواصل كلامه بحماس عن التأملات الهندسية التي يحبها ويفتخر بدرايته بها: «قد توجد أكوانٌ ثلاثية الأبعاد لا نعلم لها عددًا، متراصَّة بعضها بجانب بعض، يحلم أهل كل عالم منها بالعوالم الأخرى. قد يكون هناك عالمٌ فوق عالم، وكون فوق كون. هذا ممكنٌ تمامًا، فالممكن هو أقصى درجات اللامعقول، لكن أتساءل كيف يمكن أن تخرج من عالمك لتقع هنا في عالمي؟»

قال الملاك: «يا للعجب! غزلان وأيائل! إنها متطابقة تمامًا مع شكلها الذي يرسمونه على شعارات النبالة. كل شيء غريب للغاية! هل يُعقل أن أكون مستيقظًا حقًّا؟»

ودعَك عينَيه بأصابعه.

مرَّت ستة غزلان مرقطة في صفٍّ واحد بين الأشجار ثم توقفت. شاهدها الملاك فقال: «ليس هذا حلمًا. أنا ملاكٌ حقيقي تمامًا، في أرض الأحلام.» ثم ضحك. ووقف الكاهن الموقَّر يراقبه، في حين أخذ يمطُّ شفتَيه ويعبث بذقنه على عادته. كان يُسائل نفسَه عمَّا إذا كان هو الآخر في أرض الأحلام.

٧

علم الكاهن في المحادثات العديدة التي تلت أن في أرض الملائكة لا وجود للألم أو المؤرقات أو الموت، ولا زواج ولا تزويج، ولا ميلاد ولا نسيان. هناك، تظهر أشياءُ جديدة بين الفينة والأخرى. أرضٌ مستويةٌ رائعة بلا نهاد ولا وهاد، تنتشر فيها مبانٍ غريبة، وتتناوب عليها أشعة الشمس وضوء القمر الرقراق فلا تعدمهما أبدًا. ولا ينقطع عنها النسيم العليل الذي يتغلغل ثنايا الأشجار. أرضٌ مذهلة، فيها بحارٌ معلَّقة في جو السماء، تمخر عبابها أساطيلُ غريبة لا يعلم أحد من أين جاءت أو أيَّ وجهة تقصد. هناك، تلتمع الأزهار في الجِنان، وتتوهج النجوم بين الأقدام، ويحلو طعم الحياة. هناك، تمتد حدود الأرض بلا نهاية، فلا نظام شمسي، ولا فضاء خالٍ بين النجوم كما هو الحال في كوننا. هناك، يرتفع الهواء حتى يتخطَّى حدود الشمس ويصل إلى أبعد أركان سمائهم لتتنفس الحياة. لا شيء هناك سوى الجمال. كل جمال فنوننا بألوانها العديدة لا يضاهي نفحة مما أوتي عالمهم ذاك من روعة. ليس مُلحِّنونا سوى نخبةٍ قليلة ممن ساقت رياح ذلك العالم إلى أسماعهم همساتٍ خافتة من ألحان عالمهم. عالمٌ يجوبه ملائكة ووحوشٌ غريبة يتداخل في تكوينها البرونز والبلور.

أرضٌ يسود فيها القانون، فلا شاردة ولا واردة إلا وتحتكم بأمره، لكن قوانينه تختلف عن قوانيننا. حتى هندستهم تختلف عن هندستنا؛ إذ إن في فضائهم منحنًى يجعل كل سهولهم منحنيةً هي الأخرى. وقانون الجاذبية لديهم لا يخضع لقانون التربيع العكسي. الألوان الأولية عندهم أربعة وعشرون لونًا وليست ثلاثة فقط كما هي عندنا. معظم ما نعتبره نحن من معجزات العلم هي عندهم أمور معتادة. أغلبُ ما يعتبره علمُنا منجزاتٍ مبهرة شائعٌ واعتياديٌّ لديهم، وكل العلم الأرضي يبدو لهم أحلامًا جنونية، كما أن نُوَّار حقولهم من نار. قد يبدو هذا للمرء محض ترهات تُجافي العقل. وبالفعل لم يستوعب الكاهن معظم ما أخبره به الملاك، لأن تجارب الكاهن كلها كانت من هذا العالم المادي؛ فحالت تجاربُه تلك دون فهمه لما قصَّه الملاك من غريب الحكايات. كانت قصصًا أغرب من الخيال بحق.

لم يعرف الملاك ولا الكاهن ما جذب أحد هذين الكونَين إلى الآخر؛ فأدى إلى سقوط الملاك فجأة في سيدرفورد. استغلق ذلك حتى على كاتب هذه القصة، فهو لا يُعنى إلا بتفاصيل الواقعة، ولا رغبة لديه في تفسير تلك التفاصيل، ولا يثق في فهمه لها من الأساس. التفسيرات مغالطة عصر العلم. الحقيقة الأهم هي أن ملاكًا جميلًا ومبهرًا وقف في حديقة سيدرمورتون في الرابع من أغسطس عام ١٨٩٥ ولم تزل عالقةً به آثار عالمٍ عجيب لا

حزن فيه ولا نحيب. وهناك تحدَّث مع كاهن سيدرمورتون عن وجود عوالم متعددة، لو اضطُر كاتب هذه السطور إلى أن يقسم بظهور ذلك الملاك لفعل بلا تردد. وهذا غاية ما في الأمر.

٨

قال الملاك: «لديَّ إحساسٌ غريب للغاية هنا، أشعر به منذ شروق الشمس، لا أتذكر أن انتابني أيُّ شعور هنا قبل الآن.»

قال الكاهن: «أتمنى ألَّا يكون الألم.»

رد الملاك: «كلا، إنه شعور مختلف، شعور يشبه الفراغ.»

قال الكاهن وهو يتحسس ذقنه: «ربما كان تأثير اختلاف الضغط الجوي.»

قال الملاك: «ولديَّ أيضًا إحساسٌ غريب في فمي، كما لو أني — أمر سخيف للغاية — كما لو أني أريد دسَّ أشياء فيه.»

قال الكاهن: «يا إلهي! بالطبع! أنت جائع!»

رد الملاك: «جائع؟! ماذا يعني ذلك؟»

قال الكاهن: «ألا تأكل؟»

رد الملاك: «آكل؟ هذه كلمةٌ غريبة عليَّ!»

قال الكاهن: «أي تضع طعامًا في فمك، على المرء أن يفعل ذلك هنا. ستتعلم ذلك سريعًا. إذا لم تأكل فسيُصيبك الهُزال والضعف، وستعاني الكثير من «الألم»، وبعد ذلك تموت.»

قال الملاك: «أموت؟! هذه كلمةٌ غريبةٌ أخرى!»

قال الكاهن: «ليست غريبة هنا، إنها تعني الرحيل.»

رد الملاك: «نحن لا نرحل أبدًا.»

قال الكاهن متفكرًا: «أنت لا تعرف ما قد يحدث لك في هذا العالم، إذا كنت تشعر بالجوع والألم وانكسر جناحاك، فهذا يعني أنك قد تموت قبل أن تغادره مرةً أخرى. على أي حال، يُستحسن أن تأكل. أما أنا فأعرف أشياءَ كثيرة أسوأ.»

قال الملاك: «أعتقد أنه يُستحسن أن آكل بالفعل، إذا لم يكن ذلك صعبًا، لا يعجبني ذلك الذي تسميه «الألم»، ولا يعجبني شعور «الجائع» هذا، وإذا كان شعوري وأنا «أموت» يشبه شعوري وأنا «جائع» فلا أريد ذلك، أُفضِّل أن «آكل» إذن، يا لغرابة هذا العالم!»

قال الكاهن: «يعتبر الموت شيئًا أسوأ من الألم أو الجوع … حسب الظروف.»

قال الملاك: «عليك أن تشرح لي كل ذلك فيما بعدُ، إلا إذا استيقظتُ. أما الآن فهلَّا أريتني كيف آكل؟ من فضلك. أشعر أن ذلك مُلحٌّ.»

مدَّ الكاهن ساعده إلى الملاك وقال: «معذرةً! هلَّا منحتني شرف استضافتك؟ منزلي قريب، يبعد عن هنا أميالًا قليلة.»

قال الملاك متحيِّرًا: «منزلك أنت؟!» ولكنه استند إلى ساعد الكاهن بودٍّ، ومضيا في طريقهما وهما لم يزالا يتحدَّثان، فخاضا أوراق السرخس الكثيفة ببطء، في حين سقط عليهما ما انسلَّ من بين فروع الشجر من أشعة الشمس على هيئة بُقعٍ متفرقة، وعبرا سياج الحديقة عبر درج البوابة، ومرَّا بشجرة الخَلَنْج التي احتشد حولها النحل، سارا لميل أو أكثر من ذلك، وهبطا التل في طريقهما إلى المنزل.

لو رأيتهما معًا حينئذٍ لتعجبت من منظرهما؛ كان الملاك نحيلًا لا يتجاوز طوله خمس أقدام، له وجهٌ جميل تجنح قسماته إلى الأنوثة، كما قد يُصوِّره أبرز الرسامين الإيطاليين (وفي الحقيقة توجد رسمة له في المعرض الوطني باسم «توباياس والملاك» بريشة فنانٍ مجهول، لا تختلف كثيرًا عن شكله وطبعه)، يرتدي قميصًا بلون الزعفران تتخلَّل نسيجه خيوطٌ أرجوانية، وكانت ركبتاه وقدماه مكشوفة، وجناحاه (اللذان انكسرا) رماديَّين شاحبَين ومضمومَين خلفه. وكان الكاهن قصيرًا قويَّ البنية، في وجنتَيه شيء من الحمرة، وشعره أيضًا أحمر، حليق اللحية، بُني العينَين، يرتدي قبعةً من القش اجتمع فيها أكثر من لون، وميَّزها شريطٌ أسود، وأتمَّ هندامه برابطة عنق بيضاءَ أنيقة، وسلسلة من الذهب الخالص تدلَّتْ من طرفها ساعة. جذب رفيقه اهتمامه بشدة، حتى إنه لم يتذكَّر أنه ترك بندقيته حيث سقطت منه بين أوراق السرخس إلا عندما كان منزله في مرمى بصره.

سعد كثيرًا عندما عرف أن حدة ألم الجناح الذي ضمَّده خفَّت سريعًا.

هامش عن الملائكة

٩

يجدر بنا أن نوضح أن الملاك في هذه القصة هو الملاك كتصوُّرٍ فني، وليس الملاك الذي ينبغي الامتناع عن لمسه توقيرًا له، ولا الملائكة وفق المعتقدات الدينية، ولا الملاك بالمفهوم التقليدي الذي نعرفه جميعًا؛ فهي الأنثى الوحيدة بين الملائكة، تتسربل برداءٍ طاهرٍ أبيضَ بلا دنس، شقراء تؤطر وجهها خصلٌ طويلة من شعرها الذهبي، في عينَيْها زُرقة السماء، امرأةٌ كاملةٌ نقية، العذراء الطاهرة والأم النقية في ردائها الليلي، من كتفَيها يمتد جناحاها، تنادي بحنو وعطف، تشمل بعنايتها مهدًا تارةً، وتقود روحًا شقيقة إلى الجنة تارة، تحمل السَّعَف أغلب الأحيان، وليس غريبًا أن تجدها تحنو على خاطئ فتدفئه من برد. هي من تنزلت مع الجوقة على مارجريت في سجنها في المشهد الأخير من فاوست في القاعة. يحلم الأطفال الصغار الذين حكم عليهم بالموت قبل الأوان بهؤلاء الملائكة في روايات هنري فورد. هذا البياض الأنثوي والسحر الذي لا يوصف الذي يحيط قداستها، يبدو عبق ريحها كاختراع تويتوني. لا يعرفها الفكر اللاتيني، لم يكتب عنها القدماء البارزون، تشبه ما تصوِّره المدرسة الفنية البريئة اللطيفة القديمة تلك التي يحمل أبرز أعمالها اسم «غُصة في حلق»، تلك المدرسة الفنية التي لا مكان فيها للحيَل والغضب والازدراء والأُبَّهة. كان الملاك الأبيض من ألمانيا، أرض الشقراوات والمشاعر الرقيقة. تأتينا في مظهرٍ جليلٍ جدير بالتقديس، نقيةً ساكنة، تبعث في النفس هدوءًا كذلك الذي يبعثه التحديق في سماء مرصعة بالنجوم، وهو مظهرٌ آخر من المظاهر المحببة للروح التيوتونية، نُبجِّلها كما نُبجِّل ملائكة العبارنة، الأرواح القوية الغامضة، رافاييل وزادقييل وميكائيل الذين لم يظهروا في أعمال فنان غير واطس، ولم يرَ عظمتهم إلا بليك.

أما الملاك الذي أطلق عليه الكاهنُ النار فليس مثل هؤلاء الملائكة في شيء، بل ملاك من الفن الإيطالي، متعدد الألوان، مبتهج. يأتي من أرض الأحلام الجميلة وليس من أي مكانٍ أكثر قدسية. مخلوقٌ كاثوليكي. لا تتسرع بالتحامل عليه واتهامه بعدم توقير المقدسات قبل أن تُتم قراءة القصة.

في منزل الكاهن

١٠

كانت زوجة الخوري وابنتاها والسيدة جيهورام يلعبْنَ التنس بحماسٍ في الحديقة خلف مكتب الكاهن، ويتهامسْنَ عن أنماط حياكة القمصان. نسي الكاهن أمرهن، فجاء من اتجاههن.

رأَيْن قبعة الكاهن تبرز فوق شجر الورد، وبجانبها رأس بدون غطاء. قالت زوجة الخوري: «عليَّ أن أسأله عن سوزان ويجين.» وكانت حينئذٍ تمسك بمضرب التنس بيدٍ وبالكرة بالأخرى، وتستعد لضربة الإرسال، وتابعت: «كان يجدر به أن يذهب لزيارتها، فهو الكاهن، وليس جورج.»

مر الكاهن والملاك بمنعطفٍ في الطريق فأصبحا في مرمى البصر.

كان وجه الملاك موجهًا نحو زوجة الخوري، وجناحاه مضمومَين خلفه فلم ترَ منهما شيئًا. لم ترَ إلا وجهًا ذا جمال لا مثيلَ له على الأرض، تُحيطه هالة من شعرٍ كستنائي؛ وجسمًا رشيقًا يرفل في قميص بلون الزعفران لا يكاد يصل إلى ركبتَيه. تذكر الكاهن الركبتَين ففزع، وفزعت الفتاتان والسيدة جيهورام. حدَّق الملاك مذهولًا فيهم جميعًا ولاحظ فزعهم؛ إذ لم يسبق له أن رأى أشخاصًا مفزوعين.

قالت زوجة الخوري: «السيد هيليار! هذا غير ملائم!» ثم وقفت صامتة لحظة.

ثم توجهت نحو الفتاتين وقالت لهما: «تعالين!» فتح الكاهن فمه ثم أغلقه دون أن ينبس بكلمة، ودار العالم من حوله. وهُرِعت السيدتان والفتاتان نحو باب الممر الذي امتد بطول منزل الكاهن، وشعر الكاهن بحرجٍ شديد.

صاح الكاهن وهو يسرع الخطى: «سيدة ميندام، سيدة ميندام، لم تفهمي الأمر!»

بيد أنه لم يجد ردًّا سوى همهمات الامتعاض.

اختفت السيدتان والفتاتان في الممر، ومر الكاهن متعثرًا في الحديقة ولم تزل أمارات الحرج تعلو وجهه، ثم سمع زوجة الخوري تقول في الممر: «هذا ما يحدث عندما يكون كاهن البلدة غير متزوج!» واهتزَّ قائم المظلة، ثم أُغلق باب منزل الكاهن بقوة مُصدِرًا ضجيجًا كإطلاق النار من بندقيةٍ صغيرة. وعمَّ الصمت لبعض الوقت.

ثم قال الكاهن: «متسرعةٌ كعهدي بها دائمًا.»

أمسك ذقنه كعادته، ثم التفت إلى رفيقه الذي بدا عليه التهذيب، كان يمسك بمظلة السيدة جيهورام التي تركتها على الكرسي المصنوع من الخيزران، ويفحصها باهتمامٍ بالغ ثم فتحها وقال: «يا لها من آلية عمل غريبة! ما فائدة هذا الشيء؟»

لم يُجبه الكاهن، ذكَّره الزي الملائكي بعبارةٍ فرنسية لم تسعفه الذاكرة بها؛ إذ إنه لا يستخدم الفرنسية إلا نادرًا، وليست عبارة de trop (وتعني بالعربية أكثر من اللازم)، تذكَّرها أخيرًا، إنها عبارة Sans culotte (التي تعني بالعربية بدون سروال داخلي).

تفحَّص الكاهن زائره بعينٍ ناقدة للمرة الأولى فخاطب نفسه قائلًا: «سيكون من الصعب تفسير مظهره.»

غرس الملاك المظلة في الحشائش ثم ذهب يستنشق نسيم شجيرات الورد البري. سقط ضوء الشمس على شعره البُني فأضفى عليه مظهرًا يشبه الهالة. أصابت شوكةٌ إصبعه فقال: «غريب! الألم مجددًا.»

خاطب الكاهن نفسه قائلًا: «إنه جميل وفضولي بطبيعته، من المفترض أن يعجبني ذلك، لكن لا بد أن أتدخل.»

فاقترب من الملاك وسعل في حرج.

١١

قال الكاهن: «هؤلاء كنَّ سيدات.»

قال الملاك وهو يبتسم ويستنشق شجيرة الورد: «شيءٌ عجيب! أشكال غريبة!»

قال الكاهن: «هل لاحظت كيف تصرَّفْنَ؟»

رد الملاك: «انصرفْنَ، أو هكذا بدا لي، ربما كنَّ خائفات؟ فأنا نفسي أخاف من الأشياء التي ليس لها أجنحة. أتمنى ألَّا يكون جناحاي ما أفزعهن.»

قال الكاهن: «بل مظهرك العام.» ورمق قدمَيه الورديتَين بلا تفكير.

قال الملاك: «يا للعجب! لم يخطر ذلك ببالي، أفترض أن مظهري بدا غريبًا بالنسبة إليهن كما بدا مظهرك بالنسبة إليَّ.» ثم نظر إلى الأسفل وقال: «كما أن قدمَيْك بهما حوافر مثل الهيبوجريف.»

صححه الكاهن: «بل حذاء.»

قال الملاك: «حذاء؟ هكذا تسمُّونه؟ على أي حال، أعتذر عن إزعاج ...»

قال الكاهن: «اسمع، لدى نسائنا آراء خاصة حول الملابس، بعيدة عن الحس الفني ربما. وأخشى أن ملبسك هذا — رغم جمال شكله — سيجعلك منعزلًا عن المجتمع. لدينا هنا مَثل يقول: «إذا كنت في روما، فعليك أن تفعل ما يفعل الرومان.» أؤكد لك أنك إذا أردت أن تختلط بنا خلال زيارتك غير المقصودة فعليك ...»

وكان الكاهن أثناء حديثه يتنحنح بين كلماته، فتراجع الملاك خطوة أو أكثر في حين كان الكاهن يقترب منه ليُسمعه حديثه دون أن تتناهى الكلمات إلى سَمْع أي شخصٍ آخر. بدت على وجه الملاك الجميل الحيرة وقال: «لا أفهم لماذا تصدر هذه الأصوات من حلقك؟ أهو «الموت» أم «الجوع» أم ...»

قاطعه الكاهن: «بوصفي مضيفك ...»

ردد الملاك: «بوصفك مضيفي ...»

تابع الكاهن: «هل تمانع في ارتداء بذلة؟ أعني بذلة جديدة تمامًا، كهذه التي ألبسها.»

تراجع الملاك وألقى نظرة على هيئة الكاهن ثم قال: «أأرتدي ملابس كملابسك؟!» وكان متحيِّرًا ومتحمِّسًا في الوقت ذاته. واتسعت عيناه والتمعتا وتبسَّم وجهه.

وقال: «رائع!» وأخذ يُصفِّق وتابع: «يا له من حلمٍ غريبٍ جنوني!» ثم أمسك بلياقة قميصه الزعفراني وقال: «أين الملابس؟»

رد الكاهن: «بالداخل! من هنا، ستبدِّل ملابسك بالداخل.»

١٢

ارتدى الملاك على نصفه السفلي قطعتَين من ملابس الكاهن، وارتدى على نصفه العلوي قميصًا مشقوقًا من الخلف (ليناسب الجناحَين). ثم ارتدى جوربَين، وحذاءً من أحذية الكاهن، ولياقة، ورابطة عنق، ومعطفًا خفيفًا، لكن شعر ببعض الألم وهو يرتدي المعطف، وتذكر الكاهن أن الضمادات التي كانت على جناحَي الملاك مؤقتة. قال الكاهن: «سأطلب الشاي الآن، وسأرسل جراميت في طلب كرامب، سنتناول العشاء قبل موعده.» وحينما كان

الكاهن يصدر أوامره، تأمل الملاك مظهره في المرآة في زهو؛ إذ لم يكن إحساس التفرد الممتع غريبًا عليه كما كان إحساس الألم.

احتسيا الشاي في غرفة الاستقبال. جلس الملاك على كرسي الموسيقى (كرسي الموسيقى بسبب جناحيه)؛ إذ كان مناسبًا لجناحَيه، وكان في أول الأمر سيستلقي أمام الموقد. بدا مظهره بملابس الكاهن أقل إبهارًا بكثير من مظهره عندما كان يرتدي القميص الزعفراني عند المستنقع، لكن وجهه ظل متألِّقًا، وبدا في لون شعره ووجنتيه سطوعٌ غريب، كما الْتمعت عيناه بلون لا يألفه البشر. ومع كل هذا الجمال فقد أظهره بروز معطفه بفعل جناحيه المختبئين بمظهر الأحدب. قربت الملابس شكله لمظهر أهل الأرض، وإن كان بنطاله مجعَّدًا، والحذاء واسعًا عليه.

كان ودودًا وبشوشًا، وجاهلًا تمامًا بأساسيات الحضارة. تعلم الأكل بدون صعوبة تُذكر، واستمتع الكاهن بتعليمه كيفية احتساء الشاي. قال الملاك: «يا لهذه الفوضى! ويا له من عالمٍ قبيح غير متناسق عالمكم هذا! تضعون أشياء في أفواهكم، أما نحن فلا نستخدمها إلا للحديث أو الغناء. في عالمنا جمال لا يخبو، لا يعكره من القبح إلا أقل القليل، لدرجة أني أجد كل هذا ... مسليًا.»

نظرت السيدة هينيجر — مدبرة منزل الكاهن — إلى الملاك بعين الارتياب عندما أتت بالشاي، ظنَّته شخصًا غريب الأطوار. لو كانت رأته بزيِّه الزعفراني لظنَّت أكثر من ذلك.

تجول الملاك في الغرفة وهو يحمل قدح الشاي في إحدى يدَيه، والخبز والزبد في الأخرى، وتفقَّد أثاث الكاهن. نثرت الشمس دفئها على زهور الأضاليا ودوار الشمس في الحديقة التي أطلت عليها النافذة الفرنسية الطراز، ولم تزل مظلة السيدة جيهورام قابعة هناك كلسان من اللهب. استغرب الملاك صورة الكاهن المعلَّقة على رفِّ المدفأة، ولم يعرف الغرض من وجودها في ذلك المكان، فعلَّق عليها بقوله: «لماذا تريد نسخة مسطحة من نفسك إذا كان لديك بالفعل الأصل الدائري؟» وجذب انتباهه حاجز المدفأة الزجاجي، كما استغرب الكراسي المصنوعة من خشب البَلُّوط، وخاطب الكاهن قائلًا: «أجسادكم ليست مربعة الشكل، صحيح؟ نحن لا نثني أجسادنا هكذا أبدًا، بل نستلقي على الزنابق عندما نرغب في الراحة.»

رد الكاهن موضحًا: «أصدقك القول، لطالما حيَّرني الكرسي أنا أيضًا. يرجع أصله إلى أيامٍ كانت فيها الأرضيات باردة ومتَّسخة للغاية، ثم ولَّت تلك الأيام وبقيت الكراسي، وأصبح الجلوس على الكراسي طبيعةً راسخة فينا. لو ذهبتُ اليوم لزيارة إحدى بنات

الأبرشية ثم استلقيتُ على الأرض فجأة على الطريقة الطبيعية، فلا أعرف ما قد تفعل، سيُتداول الخبر في جميع أنحاء الأبرشية على الفور، ولو بدا أن الاستلقاء هو الطريقة الطبيعة لأخذ قسط من الراحة، الإغريق والرومان أيضًا ...»

قاطعه الملاك فجأة وسأل: «ما هذا؟»

رد الكاهن: «هذا طيرٌ محنَّط، من فصيلة الرفرافيات، أنا من قتله.»

قال الملاك: «قتلته؟»

رد الكاهن: «أطلقت عليه الرصاص من بندقية.»

قال الملاك: «أطلقتَ عليه الرصاص؟ كما فعلتَ بي؟»

رد الكاهن: «لكني لم أقتلك، لحسن الحظ.»

قال الملاك: «هل هذا ما يحدث لك إذا تعرضت للقتل؟»

رد الكاهن: «تقريبًا.»

قال الملاك: «يا للهول! وكنت تريد أن تجعلني هكذا؟ أن تضع في محجريَّ عينَين زجاجيتَين وتربطني في علبةٍ زجاجيةٍ مليئة بشيء أخضر وبُنيٍّ قذر هكذا؟»

قال الكاهن: «اسمع، أنا لم أفهم تمامًا ...»

قاطعه الملاك: «هل هذا هو الموت؟»

رد الكاهن: «نعم، هذا الطائر «ميت»، لقد مات.»

قال الملاك: «مسكين! عليَّ إذن أن آكل كثيرًا. تقول إنك قتلته، لم فعلت ذلك؟»

رد الكاهن: «عندي ولع بالطيور، أنا أجمعها، أردت اقتناء هذا النوع ...»

حدق الملاك فيه للحظة مُتحيِّرًا، ثم قال: «تَقتَني طيرًا جميلًا كهذا؟! فقط لأنك شعرت برغبة في ذلك؟ أردت اقتناء النوع؟!»

فكَّر الملاك للحظة ثم سأل الكاهن: «هل تقتل كثيرًا؟!»

رجل العلم

١٣

وصل الدكتور كرامب، كان جراميت قد قابله على بُعد مائة ياردة من بوابة منزل الكاهن. كان رجلًا ضخمًا ثقيل البدن، يتدلَّى من وجهه الحليق لُغدٌ طري، يرتدي معطفًا صباحيًّا (باللون الرمادي الذي يُفضِّله)، ورابطة عنق ذات مربعاتٍ بيضاء وسوداء. دخل المنزل وهو يسأل: «ما المشكلة؟» ويُحدِّق في وجه الملاك الصبوح دون أن تبدو عليه المفاجأة.

رد الكاهن وهو يتنحنح كعادته: «هذا السيد، السيد آنجيل (وتعني الملاك) ...» وهنا انحنى الملاك احترامًا «مصاب بطلقٍ ناري.»

قال الدكتور كرامب: «طلقٌ ناري؟ في يوليو! هل يمكنني أن أراه يا سيد ... آنجيل، أهذا اسمك؟»

قال الكاهن: «على الأرجح أنه سيتمكن من تسكين الألم، أتسمح لي بخلع معطفك عنك؟»

استدار الملاك طائعًا.

قال الدكتور كرامب بصوتٍ مسموع وهو ينظر إلى ظهر الملاك: «أهذا انحناء في العمود الفقري؟ لا بل نموٌّ زائد ... يا للهول! هذا غريب!» وأمسك بالجناح الأيسر وقال: «غريب حقًّا، ازدواج في الأطراف العلوية، ناتئٌ غرابيٌّ مشقوق! هذا ممكن، ولو لم أره من قبلُ.» وبدا الألم على ملامح الملاك وهو بين يدَي الطبيب، لكن الطبيب تابع: «العضد، والكعبرة، والزند، كلها هنا، وراثيًّا بالطبع، ولكن العضد مكسور، والبشرة الخارجية تبدو مكسوَّة بالريش، يا للعجب! كأنه طائر، الأرجح أن هذا الجسم مثيرٌ جدًّا لاهتمام المختصين بالتشريح المقارن، لم أرَ مثيلًا له، كيف حدثت هذه الإصابة يا سيد آنجيل؟»

تعجب الكاهن من واقعية الطبيب.

ورد الملاك: «صديقنا.» وأشار برأسه إلى الكاهن.

فقال الكاهن: «يؤسفني أني من فعل ذلك ...» وتقدم يشرح، ونحنحته تتخلل كلامه: «ظننت السيد، أقصد الملاك، طائرًا كبيرًا.»

رد الدكتور كرامب: «ظننتَه طائرًا كبيرًا؟ وماذا حدث بعد ذلك؟ يبدو أن عينَيك أيضًا بحاجة للفحص.» واصل الضغط بيده على الملاك وتحسَّس مكان الإصابة، في حين ظل يتابع أصوات التأوُّه غير الواضحة الصادرة من المصاب، ثم قال: «هذا التضميد جيدٌ جدًّا رغم أنه لم يجرِ على يد متخصص، أعتقد أني سأُبقيه، يا له من تشوُّهٍ غريب! هل يُسبِّب لك أي متاعب يا سيد آنجيل؟»

ثم دار الطبيب وتأمل وجه الملاك.

اعتقد الملاك أن الطبيب يسأله عن الجرح فأجابه: «نعم، يتعبني.»

قال الطبيب: «لولا العظام لنصحتك بدهانه باليود ليلًا ونهارًا، فلا شيء يضاهي مفعول اليود. يمكنك دهانه حتى على وجهك، لكن الزوائد العظمية تُعقِّد الأمور، يمكنني بَتْرها بالتأكيد، ولكن ذلك يتطلَّب التأنِّي.»

قال الملاك مرتبكًا: «أتقصد جناحيَّ؟»

رد الطبيب: «جناحان! لم لا؟ يمكنك تسميتهما بذلك، نعم أقصدهما، وماذا قد أعني غيرهما؟»

قال الملاك: «أبترهما!»

رد الطبيب: «ألَا ترى ذلك؟ القول الفصل لك في النهاية، أنا فقط أُسدي النصيحة.»

كرر الملاك: «أبترهما! يا لك من مخلوق غريب!» ثم انفجر ضاحكًا.

كان الطبيب يمقت المبالغة في الضحك، فقال: «كما تشاء.» ثم التفت إلى الكاهن وقال: «الزائدتان غريبتان.» والتفت إلى الملاك مجدَّدًا وتابع: «لم أسمع قط بمثل هذا الازدواج الكامل، على الأقل بين البشر. الأمر شائع في النباتات، هل أنت الوحيد في أسرتك الذي لديه هذه الحالة؟» ولم ينتظر ردًّا، بل تابع: «حالات ازدواج الأطراف شائعة؛ فهناك أطفال لديهم ستة أصابع، وعُجول لديها ستة قوائم، وقطط تزدوج مخالبها.» ثم التفت مجدَّدًا إلى الملاك، وكان يحاول ارتداء المعطف ولا يتمكن منه، فقال له: «هل يمكنني مساعدتك؟» وواصل كأنما يخاطب نفسه: «لكنِ ازدواجٌ كامل هكذا؟! وكبير الشبه بالطيور! لو اقتصر الأمر على ذراعَين زائدَتين لما كان بهذا القدر من الغرابة.»

استقر المعطف على الملاك أخيرًا، وحدَّق كلٌّ من الطبيب والملاك في الآخر.

قال الطبيب: «هذا يجعل المرء يفكر في خرافة الملائكة تلك وكيفية نشأتها. تبدو محمومًا بعض الشيء يا سيد آنجيل. التوهُّج الزائد عَرَضٌ أسوأ من الشحوب الزائد. صدفةٌ غريبة أن يكون اسمك آنجيل! عليَّ أن أرسل إليك دواءً لخفض الحرارة، وإذا شعرت بالعطش أثناء الليل فما عليك إلا ...» وكتب ملاحظة على طرف كمه.

راقبه الملاك باهتمام، وندت من عينَيه ابتسامةٌ خافتة.

قال الكاهن: «دقيقةً واحدة يا كرامب.» وأخذ بذراع الطبيب وذهبا نحو الباب.

تجلَّت ابتسامة الملاك أكثر، ونظر إلى ساقَيه المتشحتين بالسواد، وخاطب نفسه: «لا بد أنه يظنني بشريًّا! تفسيره للجناحَين يُغفل حقيقتي كلها، يا له من مخلوقٍ غريب! ويا له من حلم عجيب!»

١٤

همس الكاهن للطبيب: «هذا ملاك بالفعل، ألم تفهم؟»

رد الطبيب بصوتٍ حاد: «ماذا؟» ورفع حاجبَيه مبتسمًا.

قال الكاهن: «لكن ماذا عن الجناحين؟»

أجابه الطبيب: «طبيعيان تمامًا، ولو كانا غريبَين بعض الشيء.»

سأل الكاهن: «هل أنت متأكد من أنهما طبيعيان؟»

رد الطبيب: «كل ما في الوجود طبيعي يا زميلي العزيز، لا وجود لشيء غير طبيعي في هذا العالم. لو وُجد ذلك لتركت مهنتي وانضممت إلى الدير الكرتوزي الأكبر، لكن توجد ظواهر تخرج عن المألوف بالتأكيد، و...»

قاطعه الكاهن: «ولكن الطريقة التي وجدتُه بها ...»

قال الطبيب: «على ذكر ذلك، أخبرني أين وجدته؟» وجلس إلى طاولة في الردهة.

تردد الكاهن لبرهة؛ إذ لم يكن بارعًا في رواية القصص، ثم بدأ بذكر الإشاعات التي دارت عن طائرٍ كبيرٍ غريب. كانت جمله مبعثرةً غير متماسكة؛ إذ كان يخشى أن تصطبغ محادثاته اليومية العادية بأسلوب الأسقف الوعظي الذي كان يعرفه جيدًا ويستقبحه، وظل الطبيب يحرك رأسه إلى الأسفل كل ثلاث جمل تقريبًا، كما بدا من حركة رأسه وفمه أنه يُطمئن نفسه من أن التفاصيل التي سُردت تتطابق مع ما توقعه، ولما فرغ الكاهن من الحكي، خاطب الطبيبُ نفسَه بصوتٍ خفيض قائلًا: «تنويمٌ ذاتي.»

قال الكاهن: «معذرة؟»

رد الطبيب: «لا شيء، عفوًا، أكمل حديثك، هذا مثير جدًّا.»

قال الكاهن إنه خرج حاملًا بندقيته.

قاطعه الطبيب قائلًا: «قلت إن ذلك كان بعد الغداء، صحيح؟»

رد الكاهن: «بعد الغداء مباشرةً.»

قال الطبيب: «عليك أن تمتنع عن ذلك، بالمناسبة، لكن واصل حديثك، من فضلك.»

ووصل في حكيه إلى لحظة كان عند البوابة ووقعت عينه على الملاك.

قال الطبيب مقاطعًا: «كانت درجة الحرارة تسعة وسبعين في الظل في ظهر ذاك اليوم.»

عندما فرغ الكاهن من قصته، مطَّ الطبيب شفتيه، وابتسم ابتسامةً خفيفة، وحدق في عينَي الكاهن بشدة.

فقال الكاهن مترددًا: «أنت لا تصـ...»

هز الطبيب رأسه وقال: «اعذرني في ذلك.» ووضع يده على ذراع الكاهن.

تابع الطبيب: «إذن أنت خرجت بعد الغداء في ظهيرةٍ قائظة ربما تجاوزت درجة الحرارة فيها الثمانين، في حين كان عقلك — أو بالأحرى الجزء الذي كان يعمل منه حينئذٍ — يضجُّ بأفكار عن ذلك الطائر الذي تتوقَّعه، وأقول الجزء الذي كان يعمل منه لأن معظم أعصابك حينها كانت تُركز على هضم طعام الغداء الذي كنت قد تناولته لتوِّك، وفجأةً يهبُّ رجلٌ واقفًا أمامك من بين أوراق السرخس التي كان مستلقيًا بينها، فتطلق النار. وتشاء الصدفة البحتة أن يكون لدى ذاك الرجل زوجان من الأطراف العلوية، أحدهما يشبه الأجنحة، إنها صدفة بالتأكيد، أما عن الألوان الكثيرة تلك، ألم يسبق لك أن رأيت بُقعًا ملوَّنة تطفو أمام عينيك في نهارٍ مشمسٍ وهَّاج؟ هل أنت متأكد أنها كانت على الجناحَين فقط؟ فكِّر.»

قال الكاهن: «لكنه يقول إنه ملاك!» في حين اتسعت عيناه الدائريتان الصغيرتان حتى كادتا تنسلَّان من محجرَيهما، ووضع يدَيه الممتلئتَين في جيبَيه.

رد الطبيب وعيناه مثبتتان على الكاهن: «هه، توقعتُ ذلك!» ثم صمت.

قال الكاهن: «لكن ألا تظن ...»

قال الطبيب بصوتٍ خفيض ونبرةٍ جدية: «هذا الرجل مذهون.»

قال الكاهن: «ماذا؟»

رد الطبيب: «مذهون، مضطرب العقل، هل لاحظتَ الرقة الأنثوية الظاهرة في وجهه؟ وميله إلى الضحك الذي لا معنى له؟ وشعره المهمَل؟ وملبسه الغريب؟»

أمسك الكاهن بذقنه متفكرًا.

وتابع الطبيب: «كلها علامات على الاختلال العقلي، يخلع الكثير من أمثاله المشوهين على أنفسهم الكثير من الألقاب الغريبة؛ فقد يسمي أحدهم نفسه أمير ويلز، ويدَّعي آخر أنه الملاك جبرائيل، ويظن ثالثٌ نفسه إلهًا. إبسن يخال نفسه معلِّمًا عظيمًا، وماترينك يظن نفسه خليفة شيكسبير. قرأت عن ذلك كثيرًا في نوردو. لا شك أن هذا التشوُّه الغريب الذي ابتُلي به هو ما جعل الفكرة تخطر له ...»

قال الكاهن: «لكن في واقع الأمر ...»

قاطعه الطبيب: «لا شك لديَّ أنه هرب من مصحة.»

قال الكاهن: «لستُ مقتنعًا على الإطلاق بأن ...»

قاطعه الطبيب مجددًا: «ستقتنع، وإن لم تقتنع، فالشرطة هي الحل، فإن لم يكن، فالإعلان عنه، لكن حينئذٍ قد يحاول ذووه التكتُّم على الأمر؛ فحاله مثار رثاء يصِمُهم.»

قال الكاهن: «لكنه بوجهٍ عام يبدو ...»

قال الطبيب: «من المرجَّح أن يتواصل معك أصدقاؤه خلال يوم تقريبًا ...» وتحسَّس ساعته ثم تابع: «لا بد أن مسكنه في الجوار، يبدو أن لا خطر يُخشى منه، عليَّ أن أعود لإلقاء نظرة على هذا الجناح غدًا.» وقام من مكانه عند الطاولة.

وقال: «ما زلتَ متأثرًا بأقاصيص العجائز!» وربت على كتف الكاهن، وتابع: «لكن ملاك، كما تعلم — ها ها!»

قال الكاهن في ارتياب: «لقد ظننت بالفعل أن ...»

قاطعه الطبيب وهو لم يزل يتحسَّس ساعته: «فكِّر في الأدلة بأسلوبٍ دقيق، ماذا لديك منها؟ دفقات من الألوان مصدرها عوائم العين فحسب.»

قال الكاهن: «ومع ذلك، ما زلت أتذكَّر روعة جناحَيه، أكاد أُقسم بجمالهما الأخَّاذ.»

رد الطبيب: «فكِّر في الأمر؛ ظهيرةٌ قائظة، أشعة شمس شديدة تسقط على رأسك ... إلى آخره، على أي حال، أنا مضطر للانصراف، الساعة الآن الخامسة إلا الربع، سأعود لزيارة «ملاكك» (هأ هأ!) غدًا إذا لم يأتِ أحد لأخذه قبل ذلك. أحسنتَ تضميد الجرح، وأنا من أُباهي ببراعتي في ذلك، لم يذهب تدريب الإسعافات هباءً، طاب مساؤك.»

مساعد الكاهن

١٥

فتح الكاهن الباب بتلقائية ليخرج كرامب، فرأى الخوري ميندام قادمًا في الطريق بحذاء سياجٍ شجري من نباتات البيقة وإكليلية المروج. وحينئذٍ كانت يده على ذقنه وبدت في عينَيه الحيرة، ماذا لو كان قد خُيِّل إليه بالفعل؟ مرَّ الطبيب بالخوري فلمس حافة قبعته بيده. كان الكاهن يرى كرامب رجلًا حادَّ الذكاء، يعرف عن عقل أي شخص أكثر مما يعرف الشخصُ نفسُه عن عقله. وقرَّ ذلك في ذهن الكاهن، وصعَّب عليه تفسير الأمر لأي شخصٍ آخر. هب أنه عاد إلى غرفة الاستقبال فلم يجد سوى متسولٍ نائم على الأرض أمام المدفأة.

كان ميندام رجلًا نحيفًا ذا لحيةٍ بالغة التشذيب، بدا أنه قد بالغ كثيرًا في العناية بلحيته وتشذيبها، ولم يكن صوته أقل تفرُّدًا من لحيته.

صاح ميندام وهو لم يزل بعيدًا عن الباب: «جاءت زوجتي إلى المنزل في حالة سيئة.»

قال الكاهن: «تفضَّل بالدخول، تفضَّل، حدث شيءٌ غريب، تعالَ إلى المكتب، أعتذر منك بشدة، لكن عندما أشرح لك ...»

قاطعه الخوري: «وتعتذر أيضًا، آمل ذلك.»

استأنف الكاهن: «وأعتذر أيضًا.» ثم أدرك الخوري قبل أن يذهب في اتجاهٍ خطأ: «لا، المكتب ليس من هذا الاتجاه، بل من هنا.»

سأل الخوري: «الآن أخبرني من تكون تلك المرأة؟» في حين كان الكاهن يغلق باب المكتب.

رد الكاهن: «أي امرأة؟»

قال الخوري ممتعضًا: «دعك من المراوغة!»

قال الكاهن: «لا أراوغك.»

قال الخوري: «تلك المتبرِّجة ذات الملابس الخفيفة، أو بالأحرى الفاضحة، التي كنت تتمشى معها في الحديقة.»

رد الكاهن: «كان ذلك ملاكًا يا عزيزي ميندام.»

قال ميندام: «ملاك بالغ الحُسن؟»

قال الكاهن: «لقد أصبح العالم واقعيًّا أكثر من اللازم.»

صاح ميندام: «العالم يزداد قتامة كل يوم، لكن أن يُقدم رجل في منصبك بلا خجل وعلانية هكذا على ...»

قال الكاهن بصوتٍ خفيض: «تبًّا!» رغم أنه لم يَعْتد التلفُّظ بمثل هذه العبارات، ثم قال: «اسمع يا ميندام، أنت لم تفهم الأمر فهمًا صحيحًا، أؤكد لك.»

قال الخوري: «فلتشرح ما حدث إذن!» وقف الخوري مباعدًا بين ساقيه النحيلتَين، ومُربِّعًا ذراعَيه، وارتسم على وجهه عبوسٌ أطَّرته لحيته الكبيرة.

(وهنا أكرر أن التفسيرات هي المغالطة الأكبر في عصر العلم.)

نظر الكاهن حوله في يأس، أصبح العالم كله كئيبًا ميتًا في عينَيه، أكان يحلم طوال تلك الظهيرة؟ هل كان في غرفة الاستقبال ملاك بالفعل؟ أم أن هذا كله هلوسةٌ كبيرة؟

بعد مرور دقيقةٍ كاملة قال ميندام: «ألن تشرح؟»

أخذ الكاهن يعبث بذقنه ثم قال: «القصة معقَّدة.»

قال ميندام بعنف: «لا شك في ذلك.»

منع الكاهن نفسه من الإتيان بحركة تدل على نفاد صبره، ثم قال:

«خرجت أبحث عن طائرٍ غريب بعد ظهر اليوم ... هل تؤمن بالملائكة يا ميندام؟ الملائكة الحقيقيين؟»

رد ميندام: «لست هنا للتناقش في أمور اللاهوت، أنا زوج امرأةٍ تعرَّضت للإهانة.»

قال الكاهن: «أقول لك إن هذا ليس بتشبيه، يوجد ملاك، ملاكٌ حقيقي له جناحان، وهو في الغرفة المجاورة الآن. لم تفهمني؛ لذا ...»

قاطعه الخوري: «حقًّا يا هيليار؟»

قال الكاهن بصوت احتد من فرط التحمُّس: «الأمر حقيقي، أؤكد لك يا ميندام. أقسم أنه حقيقي، لا أعلم أي ذنب اقترفتُ لأُكفِّر عنه باستضافة وكساء ملاكٍ زائر، لا أعلم إلا أن

لديَّ ملاكًا في غرفة الاستقبال الآن، مهما كان ذلك مزعجًا، وهو الآن يرتدي بذلتي الجديدة ويحتسي الشاي. وسيظل معي إلى أجل غير مسمًّى، أنا من دعوته. لا شك أني تسرعت في هذه الدعوة، لكن لا يمكنني طرده لمجرد أن السيدة ميندام ... قد أكون ضعيفًا، لكن لم أَعدم المروءة.»

قال الخوري: «حقًّا يا هيليار؟»

كرَّر الكاهن بصوتٍ شابته نبرة يأس: «أؤكد لك أن ذلك حقيقي، أطلقتُ عليه النار بعد أن ظننته طائر الفلامنجو، وأصبته في جناحه.»

قال الخوري: «ظننت أني سأسمع منك تبريرًا تسوقه من بعدي إلى الأسقف، لكنَّ ما تقول جنونٌ محض.»

قال الكاهن: «فلْتَرَهُ بنفسك يا ميندام!»

رد الخوري: «لكن لا وجود للملائكة.»

قال الكاهن: «ليس هذا ما نعلِّمه للناس.»

رد الخوري: «أعني الوجود المادي.»

قال الكاهن: «على أي حال، تعالَ لرؤيته.»

قال الخوري: «لا أريد أن أرى هلوساتك.»

رد الكاهن: «لا يمكنني الشرح إلا إذا رأيتَه بنفسك، رجل أشبه بالملائكة من أي شيء على الأرض أو في السماء، لا بد أن تراه لتفهم.»

قال الخوري: «لا أريد أن أفهم، لا أريد أن أرى أي مدَّعٍ، يمكنك أن تخبرني بنفسك يا هيليار إذا كنت محقًّا، فلامنجو، حقًّا؟!»

١٦

فرغ الملاك من احتساء الشاي ووقف ينظر من النافذة متفكرًا، يتأمل بإعجابٍ بالغٍ الكنيسةَ القديمة القائمة في الوادي تُغلِّفها أشعة شمس الغروب وتزيدها جمالًا، لكنه لم يفهم الصفوف المتراصَّة من شواهد القبور التي انتشرت على جانب التل وراء الوادي؛ وفيما كان ميندام والكاهن يدخلان استدار نحوهما.

أصبح الآن بوسع ميندام أن يُغلظ للكاهن في القول بابتهاجٍ زائد، تمامًا كما كان بوسع الكاهن أن يُغلظ للرعية، بيد أن ميندام لم يكن من شيمه الغلظة في القول مع

غريب. ما إن نظر إلى الملاك حتى تهافتت فرضية «المرأة الغريبة» تلك. كان جمال الملاك أشبه بجمال مراهقٍ حسنِ الملامح.

قال ميندام بنبرة اعتذار: «يقول لي السيد هيليار إنك ... ويا له من شيء غريب، تدَّعي أنك ملاك.»

قال الكاهن: «بل قلت إنه ملاك.»

انحنى الملاك احترامًا.

وتابع ميندام: «وبالطبع نحن نشعر بالغرابة.»

قال الملاك: «مظهركم غريب، اللون الأسود والشكل العام.»

قال ميندام: «معذرة؟»

كرر الملاك: «اللون الأسود والشكل العام، وليس لديكم أجنحة.»

رد ميندام مرتبكًا: «بالتحديد نريد أن نعرف كيف جئت إلى القرية بهذا الزي الغريب.»

نظر الملاك إلى الكاهن، وكان الكاهن يعبث بذقنه.

قال الكاهن: «رأيت؟»

قال ميندام: «دعه يشرح، رجاءً.»

قال الكاهن: «فقط أردت أن أقترح ...»

قاطعه ميندام: «وأنا لا أريدك أن تقترح شيئًا.»

قال الكاهن: «تبًّا!»

نقَّل الملاك نظره بينهما وقال: «تبدو على وجهَيكما تعبيراتٌ غريبة!»

قال ميندام وقد قلَّ ما في صوته من توقير: «اسمع يا سيد ... لم تخبرني اسمك، ما حدث هو الآتي: كانت زوجتي، أو بالأحرى أربع سيدات إحداهن زوجتي، يلعبْنَ التنس في الحديقة، ثم ظهرتَ أنت أمامهن فجأة من بين أشجار الورد مرتديًا زيًّا فاضحًا، ومعك السيد هيليار.»

قال الكاهن: «لكني ...»

قاطعه ميندام وقد علا صوته: «أعلم، هو من كان يرتدي الزي الفاضح؛ لذا فمن حقي أن أطلب تفسيرًا لما حدث، وها أنا أطلبه.»

رد الملاك على غضبته وحزمه المفاجئين وذراعَيه المتشابكَين أمامه بابتسامةٍ خفيفة.

ثم قال: «أنا جديد على هذا العالم.»

رد ميندام: «عمرك لا يقل عن تسعة عشر عامًا، لا بد أنك تعي ما تفعل، عُذرك واهٍ.»

قال الملاك: «هل يمكنني أولًا أن أطرح سؤالًا؟»

قال ميندام: «فلتطرحه.»

قال الملاك: «أتحسبني بشريًّا مثلك؟ كما حسبني الرجل الذي كان يرتدي رابطة العنق ذات المربعات.»

قال ميندام: «إذا لم تكن بشريًّا، فـ...»

قاطعه الملاك: «سؤالٌ آخر: ألم تسمع قط بالملائكة؟»

قال ميندام بلهجته العادية: «لا تحاول أن تقنعني بهذه القصة، أُحذِّرك!»

قاطعهما الكاهن: «لكن يا ميندام، لديه جناحان!»

قال ميندام: «أرجوك أن تدعني أتحدث معه.»

قال الملاك: «أنت غريب للغاية، تقاطعني كلما أردتُ أن أقول شيئًا.»

قال ميندام: «وماذا لديك لتقوله؟»

رد الملاك: «أقول إني حقًّا ملاك ...»

قال ميندام: «دعك من هذا!»

قال الملاك: «ها أنت تفعلها مجددًا!»

سأله ميندام: «أخبرني بصراحة كيف انتهى بك المطاف بين شجيرات مقر كاهن سيدرمورتون بالحالة التي كنت فيها، وفي صحبة الكاهن نفسه، ألن تدعك من قصتك السخيفة الأخرى؟»

هزَّ الملاك جناحَيه وقال للكاهن: «ما خطب هذا الرجل؟»

قال الكاهن: «عزيزي ميندام، اسمح لي بكلمةٍ سريعة ...»

قال ميندام: «سؤالي مباشر وواضح بما يكفي.»

قال الملاك: «لكني لا أعرف أي إجابة تريد، ولا ترضيك أي إجابة غيرها.»

قال الخوري مجددًا: «دعك من هذا!» ثم التفت إلى الكاهن وسأله: «من أين هو؟»

وكان الشك قد تملَّك من الكاهن حينئذٍ.

فقال: «يقول إنه ملاك! لِمَ لا تستمع لما يقول؟»

رد الخوري: «ما كان لملاك أن يزعج أربع سيدات.»

قال الملاك: «هل هذا هو كل ما في الأمر؟»

رد الخوري: «وهذا ليس بالقليل حسبما أرى.»

قال الملاك: «لكني لم أكن أعلم.»

رد الخوري: «تجاوز الأمر المدى!»

قال الملاك: «أعتذر بشدة عن مضايقة هؤلاء السيدات.»

قال ميندام: «حريٌّ بك الاعتذار، لكن يبدو لي أن لا فائدة تُرجى من أيكما.» وتوجه نحو الباب وتابع: «أنا متأكد أن وراء هذه الأكمة ما يشين، وإلا قُلْتما قصةً بسيطةً واضحة، تحيَّرت في شأنكما، لا أفهم لماذا قد تأتون بقصة الملاك الخرافية تلك التي لا تنطلي على أحد في زمننا المستنير هذا، أي طائل ترجون من وراء ذلك؟»

قال الكاهن: «لكن توقف وانظر إلى جناحَيه، أؤكد لك أن له جناحَين.»

قال ميندام في حين كانت أصابعه على مقبض الباب بالفعل: «رأيت ما يكفي، ربما كان كل ذلك خدعةً ما يا هيليار.»

قال الكاهن: «ولكن يا ميندام ...»

اتجه الخوري عند الباب والتفت إلى الكاهن وبدا أنه وجد متنفَّسًا لنقمةٍ عليه كان يضمرها منذ شهور، فقال: «لا أفهم يا هيليار، لماذا تنتمي إلى الكنيسة؟ لا أفهم ذلك على الإطلاق، في خضمِّ كل هذه الحركات الاجتماعية والتغيرات الاقتصادية وقضية المرأة والجدل حول الملبس الملائم وإعادة توحيد مملكة الرب والاشتراكية والفردانية، وكل قضايا الساعة التي تشغل الناس، ومن المفترض أننا من أتباع المصلح الأعظم، ومع كل ذلك ها أنت تُحنِّط الطيور وتفزع السيدات برعونتك وطيشك ...»

قال الكاهن: «لكن يا ميندام ...»

لم يسمع له الخوري، بل قال بلهجة تهديد زادها صوته الجهوري حدة: «تجلب العار لتلاميذ الرب بهزلك، ليست هذه إلا البداية.» ثم انصرف مسرعًا، وصكَّ الباب وراءه (بعنف).

١٧

قال الملاك: «هل كل الرجال بهذه الغرابة؟»

رد الكاهن: «أنا في وضع صعب.» وأخذ يعبث في ذقنه ويبحث عن حل.

قال الملاك: «بدأت أفهم ذلك.»

قال الكاهن: «لا يصدقون الأمر.»

رد الملاك: «لاحظت ذلك.»

قال الكاهن: «سيظنون أني أكذب.»

رد الملاك: «ثم؟»

قال الكاهن: «ثم سيُسبِّب لي ذلك الكثير من الألم.»

رد الملاك: «الألم! أتمنى ألَّا يُصيبك أي ألم.»

هز الكاهن رأسه، لطالما كانت مكانته الرفيعة في القرية دافعًا له في الحياة، قال: «إذا قلت إنك لست سوى بشر فسيبدو الأمر أكثر قابلية للتصديق.»

قال الملاك: «لكني لست بشرًا.»

رد الكاهن: «أعلم ذلك، لكن لا جدوى من الإصرار.

لم يسبق لأحد هنا أن رأى ملاكًا أو سمع به إلا في الكنيسة. لو كنتَ ظهرتَ ظهورك الأول على مذبح الكنيسة يوم أحد لاختلف الحال، لكنَّ أوان ذلك قد فات (تبًّا!) لا أحد سيصدقك، لا أحد.»

قال الملاك: «أتمنى ألَّا أكون قد جلبتُ لك المتاعب.»

رد الكاهن: «لا تقلق، ما من متاعب، لكن — بطبيعة الحال — قد يكون من المزعج أن تحكي قصة لا يقبلها عقل، أقترح ...»

قاطعه الملاك: «تقترح ماذا؟»

رد الكاهن: «اسمع، أغلب الظن أن الناس في هذا العالم سيظنونك إنسانًا مثلهم، وإذا أنكرت ذلك، فسيكذِّبونك؛ إذ لا يؤمن بالأمور الاستثنائية إلا أناس استثنائيون، عندما يكون المرء في روما، ينبغي له أن يساير أهلها بعض الشيء، بالتحدُّث باللاتينية مثلًا، سيكون ذلك أفضل.»

قال الملاك: «تريدني أن أدَّعي أني إنسي؟»

رد الكاهن: «فهمتَ قصدي بسرعة.»

حدق الملاك في أزهار الكاهن متفكرًا.

قال الملاك ببطء: «ربما أتحوَّل إلى إنسان بالفعل بعد هذا كله، ربما أكون قد تسرَّعت بإنكاري ذلك، تقول إن الملائكة لا وجود لهم في هذا العالم، ومن أنا لأشذَّ عن قاعدتكم؟ لستُ سوى شيءٍ عابر يصادفه أحدهم في يومه فينساه قبل غده في عالمكم هذا. إذا كنتم تقولون إن الملائكة لا وجود لها، فلا بد إذن أني شيءٌ آخر، أنا آكل، والملائكة لا تأكل، ربما أصبحتُ إنسيًّا بالفعل.»

قال الكاهن: «وجهة نظر معقولة.»

رد الملاك: «معقولة بالنسبة إليك.»

قال الكاهن: «هي بالفعل كذلك، أما عن تفسير وجودك هنا ...»

وتردد قليلًا ثم تابع: «إذا افترضنا جدلًا أنك رجلٌ عادي يهوى الخوض في المياه، وأنك خضت في مستنقع سيدر، ثم سُرقت ملابسُك، وصادفتُك أنا وأنت في كربك ذلك، فحينها لن يكون في التفسير الذي سأقدمه للسيدة ميندام خرقٌ لنواميس الطبيعة، ففي هذه الأيام هناك معارضة لكل ما فيه خرق لها، ولو كان مصدره منابر الواعظين، لن تصدق ...»

قال الملاك: «هذا مؤسف!»

رد الكاهن: «مؤسف بالطبع! على أي حال، سأكون ممتنًّا لك إن لم تفرض على أحد طبيعتك الملائكية، سيكون الجميع ممتنِّين لك في الواقع، هناك رأيٌ راسخ يقول إن الملائكة لا يقدمون على شيء كالذي حدث. لا ألم يفوق ألم النخر في رأيٍ راسخ؛ فالآراء الراسخة بينها وبين الأسنان أوجهُ تشابهٍ عديدة، حسبما خبرت.» ومرر الكاهن يده على عينيه لوهلة ثم تابع: «لا يسعني إلا أن أصدق أنك ملاك؛ فأنا أصدق عينيَّ.»

قال الملاك: «نصدق أعيننا دائمًا.»

رد الكاهن: «ونحن أيضًا، لكن بحدود.»

عندئذٍ دقَّت الساعة القابعة على رف المدفأة معلنة تمام السابعة، وفي اللحظة ذاتها أعلنت السيدة هينيجر أن العشاء جاهز.

بعد العشاء

١٨

جلس الملاك والكاهن يتناولان العشاء، ثبت الكاهن منديله على رقبته، وراقب الملاك وهو يحاول تناول حسائه بصعوبة، ثم قال: «ستُتقن ذلك قريبًا.» شقَّ على الملاك استخدام السكين والشوكة لكنه تمكن من ذلك في النهاية. أخذ الملاك يختلس النظر إلى ديليا، العاملة التي تقدم الطعام. بعد ذلك جلسا يقشران المكسرات، فوجد فيها الملاك متعةً كبيرة، وكانت الفتاة قد انصرفت، فسأل الملاك: «هل كانت هذه أيضًا سيدة؟»

رد الكاهن (بصوتٍ خفيض): «كلا، ليست سيدة، بل هي خادمة.»

قال الملاك: «كان شكلها أفضل.»

قال الكاهن وهو يخفي إعجابه بما سمع: «لا تقل ذلك للسيدة ميندام.»

تابع الملاك: «لم يكن صدر السيدة ميندام ولا أردافها بارزة بالقدر نفسه، ما بين الصدر والأرداف هو ما كان أكثر امتلاءً، ولم يكن لون ثوبها متمايزًا، بل محايدًا، وكان وجهها ...»

لم يرُق الكاهن أن يسمع انتقاصًا من قدر السيدة ميندام، ولو كانت عدوته اللدود، فقاطعه: «السيدة ميندام وبناتها كنَّ يلعبْنَ التنس؛ هل أعجبتك هذه الأشياء؟ المكسرات؟»

رد الملاك (بصوتٍ خفيض): «كثيرًا.»

قال الكاهن (بنبرة ودودة): «اسمع، أنا أومن تمامًا بأنك ملاك.»

قال الملاك: «نعم.»

واصل الكاهن: «أطلقت النار عليك، ورأيتك تُرفرف، لا شك لديَّ، مع اعترافي بأن الأمر غريب عليَّ ويناقض تصوراتي المسبقة، لكن عمليًّا، أنا متأكد — متأكد تمامًا — أني حقًّا

رأيت ما رأيت، لكن بعد أن رأيتُ سلوك هذين الشخصَين، (بصوت خفيض) لا أرى لنا سبيلًا إلى إقناع الناس؛ فالناس اليوم يُصرُّون إصرارًا شديدًا على وجود البراهين. أعتقد أن جدلًا طويلًا سيدور حول أسلوب تعاملك مع الناس؛ لذا أرى أنه من الأفضل — ولو بصورةٍ مؤقتة — أن تفعل ما اقترحتَ فعله، أعني أن تتصرف كبشريٍّ بقدر الإمكان. بالطبع لا يمكننا أن نعرف كيف ومتى قد تعود إلى طبيعتك، لكن بعد ما حدث …» (وتوقف الكاهن ليُعيد ملء كأسه)، ثم تابع: «بعد ما حدث، لن أُفاجأ إن رأيت جانب الغرفة ينهار، وملائكة السماء يظهرون لإعادتك من حيث أتيت، ربما يأخذوننا معًا حتى. لقد أصبح خيالي أكثر اتساعًا الآن، طوال السنوات الماضية كنت قد نسيت شأن أرض العجائب، ومع ذلك فالحكمة تقتضي أن نُعلم الناس بالأمر تدريجيًّا.»

قال الملاك: «أخبرني عن حياتكم، لا أعلم عنها شيئًا حتى الآن، كيف تبدأ حياتكم؟»

قال الكاهن: «يا للعجب! لم أتصور أني سأضطر إلى شرح ذلك يومًا، في بداية وجودنا على هذه الأرض يكون المرء منا طفلًا رضيعًا، قطعةَ لحمٍ ورديةً عديمة الحيلة ملتحفة بأغطيةٍ بيضاء، بأعينٍ حائرة ترنو إلى الأفق البعيد، ثم يكبر الأطفال، ويزدادون جمالًا عندما تُغسَل وجوههم، ويأخذون في النمو حتى يبلغوا حجمًا محدَّدًا، يغدو الرُّضَّع صبية وفتيات، ثم شبانًا وعذراوات، (بصوت خفيض) ثم رجالًا وسيدات في ربيع العمر، وهذا أفضل مراحل الحياة حسب رأي الكثيرين، وأكثرها جمالًا، حيث الآمال العظيمة والأحلام الملوَّنة والعواطف الغريبة والأخطار التي لا يُحسب لها حساب.»

أشار الملاك إلى الباب الذي خرجت منه ديليا وقال: «كانت تلك عذراء؟»

قال الكاهن: «نعم، كان تلك عذراء.»

سأل الملاك: «وماذا يحدث بعد ذلك؟»

قال الكاهن: «بعد ذلك يخبو ذلك الألق شيئًا فشيئًا، وتشتد ضراوة معترك الحياة، يأتي إليَّ معظم الرجال والسيدات وقد ائتلفوا في ثنائيات، خجولين مهتزين، يرفلون في ملابسَ رسميةٍ قبيحة، فأُزوِّجهم، ثم يُرزقون بأطفالٍ صغار ورديِّي اللون، يصبح بعض أولئك الشبان والعذراوات بُدناء سليطي اللسان، ويصبح آخرون نُحفاء حادِّي الطباع، يذوي جمال بشرتهم، ويتملَّكهم وهمٌ غريب أنهم أرفع شأنًا ممن يصغرونهم، وتفقد حياتهم كل ما كان فيها من بهجة ومجد، فيُسَمُّون ما في حياة من يصغرونهم من بهجة ومجد وهمًا، ثم يأخذون في التداعي.»

قال الملاك: «التداعي! يا للغرابة!»

تابع الكاهن: «يتساقط شعرهم ويبهت لونه أو يستحيل شيبًا رماديًّا، انظر إليَّ كمثال ...» انحنى الكاهن إلى الأمام ليَظهر في وسط رأسه مساحةٌ دائريةٌ لامعة كعملةٍ معدنية، ثم واصل: «ويفقدون أسنانهم، وتنكمش وجوههم وتصبح مجعَّدة أو «محزَّزة» كما وصفتَ وجهي. ويزداد اهتمامهم بما سيأكلون أو يشربون، في حين يقل اهتمامهم بأي مباهجَ أخرى في الحياة، تضعف مفاصلهم فتهتز أطرافهم، ويتباطأ خفقان قلوبهم، أو يسعلون فيلفظون نتفًا من رئاتهم، ويحل الألم ...»

هنا صاح الملاك: «آهٍ!» عندما ذُكر الألم.

واصل الكاهن: «يحلُّ الألم ضيفًا ثقيلًا على حياتهم، ثم يرحلون — ليس برضاهم، بل رغمًا عنهم — من هذا العالم، يتمسكون بأمله بكل ما يتبقَّى لديهم من قوة؛ لكيلا يفلتوا منه إلى ...»

قال الملاك: «إلى أين يرحلون؟»

رد الكاهن: «كنت أظن يومًا ما أني أعرف، لكن بعد أن بلغتُ هذا العمر لا أعرف. لدينا اعتقاد — وربما كان أكثر من مجرد اعتقاد — بأنه يمكن للمرء أن يكون من رجال الكنيسة وغير مؤمن في الوقت ذاته، يقول ستوكس أن لا شيء في ذلك.» وهزَّ رأسه نحو الموز.

سأل الملاك: «وأنت، هل كنتَ رضيعًا ورديًّا صغيرًا؟»

رد الكاهن: «كنت رضيعًا ورديًّا صغيرًا في وقت ليس بالبعيد.»

قال الملاك: «وهل كنت حينها ترتدي ملابس مثل التي ترتديها الآن؟»

رد الكاهن: «بالطبع لا، يا للعجب! يا لها من فكرة غريبة! كنت أرتدي ملابسَ بيضاءَ طويلة على ما أفترض، مثل الرضَّع الورديين الآخرين.»

سأل الملاك: «ثم تحولت إلى فتًى صغير؟»

قال الكاهن: «فتًى صغير، نعم.»

سأل الملاك: «ثم شابٍّ مفعم بالقوة؟»

رد الكاهن: «يؤسفني أني لم أكن شابًّا مفعمًا بالقوة، بل كنت أمرض كثيرًا، وسلبني فقري العنفوان والجسارة. كنت أدرس باجتهاد، وانكببت على البحث في أفكارٍ موشكة على الزوال وضعها رجالٌ ماتوا منذ زمنٍ بعيد، فاتني عنفوان الشباب، ولم تأتني العذراء، ودهمتني كآبة الحياة قبل الأوان.»

قال الملاك: «وهل لديك أطفالٌ ورديُّون صغار؟»

رد الكاهن: «كلا.» وتوقف لوهلة ثم تابع: «على أي حال، يمكنك أن تلاحظ أني بدأت في التداعي، قريبًا سينحني ظهري كساق زهرةٍ ذابلة، وبعد بضعة آلاف من الأيام سينتهي أمري، وسأغادر عالمي هذا، لا أعلم إلى أين!»

سأل الملاك: «وعليك أن تأكل هكذا كل يوم؟»

رد الكاهن: «عليَّ أن آكل وأشتري ملابسي وأحافظ على هذا السقف الذي يحميني، يوجد في هذا العالم شيئان كريهان يسمَّيان البرد والمطر. الآخرون هنا — لأسباب يطول شرحها، وبطريقة لا متسع لذكرها الآن — جعلوا لي دورًا هامًّا في حياتهم؛ يأتونني بأطفالهم الورديِّين الصغار فأقرأ على كلٍّ منهم اسمًا وبعض الأشياء الأخرى، وعندما يكبر هؤلاء الأطفال ويصبحون شبابًا وعذراوات يأتون مجددًا لتأكيد تعميدهم، ستفهم ذلك بدقةٍ أكبر لاحقًا. وقبل أن يأتلفوا في ثنائيات وينجبوا أطفالًا ورديِّين صغارًا عليهم أن يأتوا ويستمعوا إليَّ أتلو عليهم مقاطع من كتاب. ثم يُنبذون، فلا تتحدث عذراء أخرى إلى من أنجبت طفلًا ورديًّا صغيرًا قبل أن أقرأ عليها من كتابي لعشرين دقيقة. هذا ضروري، كما سيتضح لك، مهما كان غريبًا عليك الآن. وفي وقتٍ لاحق، عندما يبدءون في التداعي، أحاول إقناعهم بعالمٍ غريب لا أكاد أومن أنا نفسي به، فيه حياةٌ مختلفة تمامًا عن حياتهم التي عاشوها أو التي يرغبون فيها. وفي النهاية أدفنهم، وأقرأ من كتابي على آخرين لن يلبثوا أن يلحقوا بهم في الأرض المجهولة. أكون معهم في بداية حياتهم، وفي أوجها، وفي نهايتها. وكل سبعة أيام، أحدثهم — وأنا البشري الذي لا أرى شيئًا أكثر مما يرونه — عن حياةٍ آتية، حياة لا نعرف شيئًا عنها، إذا كان لها وجود، ثم أتداعى وأنا لم أزل أحدثهم بنبوءاتي تلك.»

قال الملاك: «يا لها من حياةٍ غريبة!»

رد الكاهن: «نعم، يا لها من حياةٍ غريبة! لكن ما يجعلها غريبة بالنسبة إليَّ شيءٌ جديد؛ فقد كنت أعتبرها تسلسلًا لا حيد عنه حتى ظهرتَ أنت في حياتي.»

استطرد الكاهن: «حياتنا هذه عنيدة، تقيد أرواحنا بحبال متعها المؤقتة، (بصوت خفيض) فعندما أُحدث شعب الكنيسة عن حياةٍ أخرى، أجد بعضهم يشبعون نهمهم بأكل الحلويات، وأرى شيوخًا يغطُّون في النوم، وشبابًا يختلسون النظر إلى العذراوات، ورجالًا بالغين يتباهى كلٌّ منهم بصديريٍّ أبيض اللون تتدلَّى منه سلسلةٌ ذهبية، أجسادٌ بشريةٌ عاديةٌ مغلَّفة بغطاء من البذخ والأبهة، وزوجاتهم يستعرضْنَ قبعاتهن المبهرجة، في حين أواصل أنا كلامي الرتيب عن أشياء لا تُرى ولا تُدرَك، أتلو عليهم: «ما لمْ تَرَ عَينٌ،

وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ.» ثم أنظر فأرى رجلًا بالغًا فانيًا يتأمل بعين الإعجاب قفازَين ثمنهما ثلاثة شلنات وستة بنسات. إيماني يضعف عامًا بعد عام، عندما كنت أمرض وأنا شاب كنت شبه متأكد من أن وراء هذا العالم الخيالي المؤقت يوجد العالم الحقيقي، عالم الأبدية، أما الآن ...»

ونظر إلى يده السمينة البيضاء تعبث بساق الكأس، ثم قال: «فازداد وزني عما كان عليه تلك الأيام.»

ثم استأنف كلامه: «تغيرتُ وتطورت كثيرًا، لم أعد أهتم بصراع الروح والجسد كما كنت، يومًا بعد يوم يهتز إيماني بمعتقداتي ويزداد إيماني بالرب، أعيش حياةً خاملة، لا أؤدي واجباتي على أكمل وجه، وأهتم بالطيور والشطرنج بعض الشيء، محض تفاهات، عمري بيده ...» (وصمت قليلًا.)

تنهد الكاهن وظل يتفكر، في حين راقبه الملاك متحيرًا، وأعاد الكاهن ملء كأسه.

١٩

تعشى الملاك مع الكاهن وتسامرا، ثم حلَّ الليل، فتثاءب.

قال الملاك فجأة: «يا للعجب! يبدو أن قوة عُلْيا فتحت فمي فجأةً ثم تدفَّقت في حلقي دفعةٌ كبيرة من الهواء.»

قال الكاهن: «أنت تثاءبت، ألا تتثاءبون في بلدك الملائكي؟»

رد الملاك: «لا نتثاءب أبدًا.»

قال الكاهن: «ومع ذلك، أنتم خالدون، أعتقد أنك تريد الذهاب للسرير.»

رد الملاك: «سرير؟! أين هذا المكان؟»

شرح الكاهن له ما هو الظلام وعرَّفه فن الخلود إلى النوم (يبدو أن الملائكة لا ينامون إلا ليحلموا، يحلمون وهم يضعون جباههم على ركبهم كالإنسان البدائي، وينامون في مروجٍ تغطيها زهور الخشخاش، في حر النهار). ووجد الملاك ترتيب غرفة النوم غريبًا.

فقال: «لماذا كل شيء مرفوع على قوائمَ خشبيةٍ كبيرة؟ لماذا تتركون الأرض وترفعون كل شيء على أربع قوائمَ خشبية؟» فقدم له الكاهن تفسيرًا فلسفيًّا غامضًا. حرق الملاك إصبعه بلهب الشمعة، وأبدى جهلًا تامًّا بمبادئ الاحتراق. طال اللهب الستائر، فلم يكن من الملاك إلا أن راقبه منبهرًا، وبعد أن أُخمِد الحريق اضطُر الكاهن أن يلقي عليه محاضرةً

عن النار. ولم يكن ذلك الشرح الوحيد الذي اضطر الكاهن لتقديمه، حتى الصابون كان يتطلَّب شرحًا. مرت ساعة تقريبًا قبل أن يخلد الملاك إلى النوم.

قال الكاهن وهو يهبط الدرج منهكًا: «إنه جميلٌ جدًّا، ملاكٌ حقيقي، لا شك في ذلك، لكن أخشى أنه سيكون مصدر قلقٍ دائم حتى يتعلَّم كيفية سير الأمور هنا على الأرض.»

بدا عليه القلق، فصبَّ لنفسه كأسًا إضافية، ثم أعاد النبيذ إلى القبو.

٢٠

وقف الخوري أمام المرآة وخلع ياقته متفكرًا، خاطبته السيدة ميندام من الكرسي المصنوع من الخيزران.

قالت: «لم أسمع قط قصةً أغرب من هذه، لا بد أن هذا الرجل فقد عقله، هل أنت متأكد ...»

رد الخوري: «متأكد تمامًا عزيزتي، أخبرتك بكل كلمة وفعل.»

قالت السيدة ميندام وهي تشير بيديها: «أمر لا يقبله العقل.»

وافقها الخوري: «بالضبط يا عزيزتي.»

قالت السيدة ميندام: «لا شك أن الكاهن مجنون.»

وضع الخوري دبوسي بدلته بعناية على منضدة الزينة وقال: «وهذا الأحدب من أغرب من رأت عيناي منذ وقتٍ طويل بالتأكيد؛ شكله غريب، له وجهٌ كبير فاتح اللون، وشعرٌ بُنِّي طويل لا بد أنه لم يُقصَّ منذ أشهر! هذا بالإضافة إلى تحديقه الدائم الغريب، وابتسامته المتكلَّفة، هيئته سخيفة كالمخنَّثين.»

قالت السيدة ميندام: «ولكن من عساه أن يكون؟»

رد الخوري: «لا يمكنني تصور ذلك يا عزيزتي، ولا أعرف حتى من أين جاء، ربما كان منشدًا في جوقة أو شيئًا من هذا القبيل.»

سألت السيدة ميندام: «لكن لماذا كان عند الشجيرات؟ وبهذا الزي الفظيع؟»

رد الخوري: «لا أعرف، لم يعطني الكاهن تفسيرًا، لم يقل لي إلا: «ميندام، هذا ملاك».»

قالت السيدة ميندام متفكرة: «أتساءل لو كان يعاقر الخمر، ربما كانا يستحمان عند النبع، هذا وارد بالطبع، ولكني لم ألاحظ أي ملابس أخرى على ذراعه.»

جلس الخوري على السرير، وفك رباط حذائه.

قال: «الأمر كله لغزٌ مستغلق عليَّ يا عزيزتي، (يُسمع صوت فك الرباط) الهلوسة هي التفسير الوحيد الـ...»

سألت السيدة ميندام: «هل أنت متأكد يا جورج أنها لم تكن امرأة؟»

رد الخوري: «متأكد تمامًا.»

«يمكنني تمييز الرجال بالتأكيد.»

«وهذا كان شابًّا في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره.»

قالت السيدة ميندام: «لا أفهم، هل قلت إن هذا الشيء سيقيم في منزل الكاهن؟»

قال الخوري: «هيليار مجنون، هذا هو الأمر ببساطة.» ونهض من السرير واتجه نحو الباب ليضع حذاءه في مكانه، ثم واصل: «طريقته كانت توحي بأنه كان يصدق أن ذلك المشوَّه ملاك بالفعل.» ثم سأل السيدة ميندام: «هل حذاؤكِ في الخارج عزيزتي؟»

ردَّت: «بل بجانب الخزانة بالضبط.» ثم واصلت: «لطالما كان غريب الأطوار، فيه شيء من الطفولة، ملاك؟! يا للعجب!»

توجه الخوري إلى المدفأة التي كانت السيدة ميندام تُفضِّل إشعالها حتى في الصيف، ووقف بجوارها يعبث بحمالتَيه وقال: «يُهمل كل المشكلات الملحَّة في الحياة، وينشغل كل حين بشكلٍ جديد من أشكال العبث، ملاك!» ثم انفجر بالضحك وواصل: «لا بد أن هيليار مجنون.»

انتقلت عدوى الضحك إلى السيدة ميندام وقالت: «حتى لو كان كذلك، لا تفسير للأحدب بعدُ.»

قال الخوري: «لا بد أن الأحدب أيضًا مجنون.»

قالت السيدة ميندام: «هذا هو التفسير المنطقي الوحيد.» (وصمتت برهة.)

ثم واصلت: «سواء أكان ملاكًا أم غير ذلك، لا يهمني إلا ما يعنيني، حتى لو كان الرجل يظن أنه بصحبة ملاك، ما من سبب يسوغ عدم تصرفه بلياقة.»

رد الخوري: «صحيح تمامًا.»

قالت السيدة ميندام وهي تسعل: «ستكتب إلى الأسقف، أليس كذلك؟»

رد الخوري: «نعم، لن أكتب إلى الأسقف، لو فعلت لبدا في ذلك شيء من الغدر، كما أنه لم يهتم بخطابي الأخير.»

قالت: «لكن بالتأكيد ...»

قال الخوري: «سأكتب إلى أوستن سرًّا، وهو سيخبر الأسقف لا محالة، عليكِ أن تتذكري يا عزيزتي أن ...»

قاطعته: «إن هيليار يمكنه عزلك؟ هذا ما كنت ستقول؟ عزيزي، الرجل أضعف من أن يفعلها! أعرف ذلك، كما أنك تتولى كل أعماله نيابة عنه، فنحن من نُدير الأبرشية من أقصاها إلى أقصاها، لا أعرف ماذا قد يحدث لفقراء الأبرشية لولاي، غدًا سيؤويهم منزل الكاهن مجانًا، جودي أنسيل مثلًا ...»

قال الخوري وهو يخلع ملابسه: «أعلم يا عزيزتي، حدثْتني عنها بعد ظهر اليوم.»

٢١

وهكذا، في غرفة النوم الصغيرة هذه، نصل إلى استراحتنا الأولى في هذه القصة، بذلنا جهدًا في سردها للقارئ الكريم، وقد حان الوقت الآن لتلخيص ما سبق ذكره.

بالنظر إلى ما سلف ذكره يتضح للقارئ الكريم أن الكثير قد جرى، بدأنا بوهج من الضوء (كشعاعٍ ذهبي يلمع في ظلمة الليل في منحنياتٍ تظهر وتختفي كالْتماع أنصال سيوفٍ مصلتة)، وصوت قيثارة، وظهور ملاكٍ ذي جناحَين متعددي الألوان.

ثم قُص الجناحان سريعًا، واختفت الهالة المحيطة بالملاك، وانطمس بهاؤه تحت المعطف والبنطال، وبدأ الملاك يتصرف كالإنسان خوفًا من اتهامه بالجنون أو الانتحال. وقد رأى القارئ الكريم أيضًا آراء الكاهن والطبيب وزوجة الخوري في الوافد الغريب أو خمَّن تلك الآراء، وسترد فيما يلي آراءٌ مثيرة أخرى.

استحال غسق تلك الأمسية الصيفية ليلًا مظلمًا، وخلد الملاك إلى النوم، فرأى فيما يرى النائم عالمه الرائع، حيث الضوء دائم، والجميع سعداء، والنار لا تحرق، والثلج لا يقرص، والنجوم تنثر ضوءها الفضي على غدرانٍ تتخلَّل مروجًا يغطيها عشبٌ كالزغب الناعم وتصب في أبحر من سلام. يرى جناحَيه وقد استعادا ألوانهما الكثيرة، يرفرف بهما في هواءٍ نقي كالبلور يملأ العالم الذي جاء منه.

وبينما كان الملاك مستغرقًا في أحلامه، ظل الكاهن مستيقظًا تكتنفه الحيرة. ساوره قلق مما قد تُقدِم عليه السيدة ميندام، لكن أحاديث ذلك المساء فتحت نافذة في عقله، رأى منها بعين الخيال عالمًا سحريًّا لم يخطر ببال أحد، عالمًا ظل حتى ذلك الحين متواريًا عن أعين عالمه. لعشرين عامًا عاش حياته اليومية كسائر أهل قريته، تعصمه معتقداته العادية وكفاح الحياة المرهق من الغرق في الأحلام الغريبة، أما الآن فقد دهمه إحساس بحلول شيءٍ غريب لم يعهده، خالط انزعاجه المعتاد من جاره الفظِّ.

شعر بنذر شرٍّ قادم طغَت من فورها على كل اعتباراته؛ فقام من سريره متخبطًا، واصطدمت ساقاه بالأثاث أكثر من مرة، حتى عثر على أعواد الثقاب أخيرًا، فأشعل شمعة ليتأكد أن عالمه الذي يعرفه لم يزل كما هو. كانت المتاعب التي سيجرُّها عليه آل ميندام أكثرَ ما يشغله، تخيَّل لسان السيدة ميندام معلقًا فوقه كسيف ديموقليس، هل ستهدأ ثائرتها قبل أن تملأ الدنيا ضجيجًا عن هذه الواقعة؟

وعندما نام صائد الطائر الغريب أخيرًا نومه المضطرب، كان جالي — ابن سيدرتون — يفرغ بندقيته بحذر بعد يومٍ مرهق لم يُدرَّ عليه شيئًا، وكان ساندي برايت راكعًا يصلي وقد أحكم غلق نافذته. وبعد أن تحادثتا طويلًا عن الصوت والوهج غطَّت آني درغان في نومٍ عميق وفمها مفتوح، وكانت أم آموري تحلم بالغسيل. وجلس لامبي درغان في سريره يدندن بجزء من لحن سمعه مرةً ويرهف السمع لعله يسمعه مرةً أخرى. أما كاتب المحامي في إبينج هانجر، فكان يحاول كتابة أبيات من الشعر عن ابنة تاجر الحلويات في بورتبردوك وقد نسي أمر الطائر الغريب تمامًا. وبالنسبة إلى المزارع الذي رأى الطائر على تخوم حديقة سيدرمورتون فقد لحقت بعينه إصابة نجمت عن مشادةٍ صغيرة حول أرجل الطيور على متن «السفينة». كان علينا أن نُشير إلى هؤلاء في عجالة، إذ لم يسبِّب مَلَاك قبل ذلك قط مثل هذه السلسلة من الأحداث.

الصباح

٢٢

قصد الكاهن الملاك فوجده يطلُّ من النافذة وقد ارتدى ملابسه. كان صباحًا ناضرًا لم يزل مرصَّعًا بحبات الندى، ثم نثرت أشعة شمس الشروق القادمة من وراء البيت دفئًا ولونًا ذهبيًّا على جانب التل. حامت الطيور بحماس بين الأسيجة الشجرية والشجيرات. وكان محراثٌ يسير بطيئًا أعلى التل في ذلك اليوم من أواخر شهر أغسطس. أسند الملاك ذقنه على يدَيه ولم يلتفت عندما اقترب منه الكاهن.

سأل الكاهن: «كيف حال جناحك؟»

رد الملاك: «كنت قد نسيتُ أمره، هل هذا الذي هناك رجل؟»

أجابه الكاهن: «هذا مزارع.»

سأل الملاك: «لماذا لا يكفُّ عن السير ذهابًا وإيابًا هكذا؟»

رد الكاهن: «إنه يحرث، هذا عمله.»

قال الملاك: «عمله؟! لكن لماذا يفعل ذلك؟ هذا شيءٌ رتيب.»

وافقه الكاهن: «هذا صحيح، لكن عليه أن يفعله لكسب عيشه، ليحصل على طعام ويأكل، وكل هذه الأمور.»

قال الملاك: «يا للغرابة! هل على كل الرجال فعل ذلك؟ هل تفعل أنت ذلك؟»

رد الكاهن: «كلا، إنه يفعل ذلك نيابة عني، يتكفَّل بنصيبي من الحرث.»

سأل الملاك: «لماذا؟»

رد الكاهن: «في مقابل الأشياء التي أفعلها أنا نيابةً عنه، لدينا في هذا العالم ما يُسمى بتقسيم العمل، تبادل منفعة.»

قال الملاك: «فهمت.» وعيناه لا تزالان معلقتَين بالمزارع وحركته الثقيلة.

ثم سأل: «وما الذي تفعله نيابةً عنه؟»

رد الكاهن: «قد يبدو ذلك لك سؤالًا سهلًا، لكنه صعب؛ فالترتيبات الاجتماعية لدينا معقَّدة بعض الشيء، يستحيل شرح هذه الأمور دفعةً واحدة، خاصة قبل الإفطار. ألست جائعًا؟»

قال الملاك ببطء وهو لم يزل عند النافذة: «أعتقد أني جائع حقًّا.» ثم صاح فجأة: «لسببٍ ما لا يمكنني أن أكفَّ عن التفكير في أن الحراثة لا متعة فيها بكل تأكيد.»

قال الكاهن: «ربما، لكن الفطور جاهز، ألن تأتي؟»

ترك الملاك النافذة على مضض.

مضى الكاهن يشرح له وهما يهبطان الدرج: «مجتمعنا منظومةٌ معقدة.»

سأل الملاك: «حقًّا؟»

تابع الكاهن: «وهو منظم بحيث يتولى شخصٌ عملًا ما، ويتولى آخر عملًا غيره.»

قال الملاك: «وهذا الرجل العجوز النحيل يضغط على تلك الأسنان الحديدية الثقيلة التي يجرها الحصانان، في حين ننزل نحن لتناول الطعام؟»

رد الكاهن: «نعم، ستفهم أن هذا عادل تمامًا، الإفطار فُطر وبيض مسلوق! تفضَّل بالجلوس؛ ربما ظننت أن في هذا الترتيب ظلمًا.»

قال الملاك: «أنا متحير.»

قال الكاهن: «هذا الشراب يسمى قهوة أما عن تقسيم العمل ذاك، فلا عجب أن تتحيَّر؛ فقد كنت متحيرًا مثلك عندما كنت شابًّا. ثم اتسعت رؤيتي للأشياء (هذه الأشياء السوداء تسمى الفطر، شكلها جميل)، بدلًا من أن أشرح لك هذا الأمر الآن (هذا لك)، سأعيرك كتابًا صغيرًا لتقرأه (طعم الفطر لا يقل جمالًا عن منظره)، سيوضِّح لك الكتاب كل شيء.»

الكمان

٢٣

دلف الكاهن بعد الإفطار إلى غرفةٍ صغيرةٍ مجاورة لمكتبه لإحضار كتاب عن الاقتصاد السياسي ليقرأه الملاك؛ إذ كان الملاك جاهلًا بالشئون الاجتماعية لدرجة لا تكفي معها التفسيرات الشفهية، وظل الباب مواربًا.

تبعه الملاك، ولفت نظره شيء فأخذه وسأل: «ما هذا؟ إنه كمان!»

رد الكاهن: «هل تجيد العزف؟»

رد الملاك على سؤال الكاهن بتمرير قوس الكمان الذي كان في يده على الأوتار، فصدرت نغمة جعلت الكاهن يلتفت فجأة.

أحكم الملاك قبضته على الكمان وقوسه، وأخذ القوس يتأرجح على الأوتار، فسمع الكاهن لحنًا لم يسمعه قبل ذلك قط، وعدَّل الملاك وضع الكمان تحت ذقنه الرقيق وواصل العزف، فالْتمعت عيناه وارتسمت على شفتَيه بسمة أثناء عزفه، ثم خلا وجهه من أي تعبير، وبدا أنه لم يعد ينظر إلى الكاهن بل إلى شيءٍ ما وراءه، شيءٍ لا وجود له إلا في ذاكرته أو خياله، شيءٍ بعيد جدًّا، لم يحلم به أحد قط.

حاول الكاهن أن يندمج مع الموسيقى، ذكَّره اللحن بلهبٍ يرتفع ويتوهَّج ويتأرجح ويتراقص ويخبو ثم يظهر مجدَّدًا، أم أن الذي ظهر بعد الاختفاء كان لهبًا آخر؟ يشبه الأول ولا يشبهه، لهبًا انطلق في أعقاب الأول واهتزَّ ثم اختفى، ثم ظهر ثالث، يشبه سابقَيه ولا يشبههما، تعاقبت الألحان كألسنة لهب أُوقد للتوِّ. كان هناك لحنان أو صوتان، لكن أي لحنين؟ كان يعرف القليل عن الموسيقى. يتصاعد اللحنان أحدهما تلو الآخر كلسانَي لهب يرتفعان من نفس النار، يتسابقان ويتقلَّبان حتى يمتدا إلى عنان السماء، يتحرر لسانا

اللهب من النار التي أنجبتهما، وتظل وحدها متقدة في الأسفل، في حين يطوف اللسانان في الفضاء وقد انفصلا حتى عن وقودهما، فيطاردان فراشتَين متراقصتَين تهربان منهما وترقصان على أنغامهما في الوقت ذاته، في حركة تجمع بين النعومة والحيرة.

فراشتان متراقصتان؟! فيمَ كان الكاهن يفكر؟ أين كان؟ نعم كان في الغرفة الصغيرة المجاورة لمكتبه، وكان الملاك الواقف أمامه يبتسم في وجهه وهو يعزف الكمان، ويرسل نظراته إلى ما وراءه، كما لو كان نافذةً مشرعة. هذا اللحن مجددًا، لهبٌ أصفر، تبعثره دفقة من رياح، ثم يلتئم مجدَّدًا، ثم يرتفع الآخر وراءه في حركةٍ دائريةٍ ناعمة، يتسابقان في مزيج من النار والنور في الفضاء الفسيح.

غاب المكتب ومعه وقائع الحياة برمَّتها عن عين الكاهن تدريجيًّا، تضاءلا شيئًا فشيئًا كضباب ينقشع ويتبدَّد في جوِّ السماء، لم يبقَ إلا هو والملاك، يقفان على قمة جبل من موسيقى، تحوم حولهما ألحانٌ متناثرة، وتختفي، ثم تظهر مجددًا. كان في أرض الجمال، ورأى بهاء السماء مصوَّرًا على وجه الملاك، ونبض جناحاه بالألوان المتوهِّجة مجددًا. غاب نظر الكاهن، ولا يمكنني أنا أن أصف هذه الأرض الفسيحة الرائعة السامقة البهية، حيث الفضاء ليس كفضائنا، والزمن ليس كزمننا، يتعذَّر على المرء وصفها إلا بالتشبيهات، وحتى التشبيهات تبخسها حقها، لو كان ذلك كله صورة من نسج الخيال، فكيف يكون الواقع؟ لم ترهما الكائنات العجيبة التي كانت تطوف في السماء، بل مرت خلالهما كما يمر المرء بين الضباب، فقد الكاهن إحساسه بالوقت وبضرورات الحياة.

ثم تنهَّد الملاك قائلًا: «آهٍ!» وترك الكمان.

كان الكاهن قد نسي كتاب الاقتصاد السياسي، ونسي كل ما كان قبل أن يبدأ الملاك عزفه. جلس ساكنًا لدقيقة تقريبًا، ثم أفاق فوجد نفسه جالسًا على صندوقٍ محكم الغلق بأجزاءٍ حديدية.

قال الكاهن ببطء: «أنت ماهر حقًّا.»

نظر حوله متحيرًا ثم قال: «تخيَّلت أشياء وأنت تعزف، تخيَّلت أني أرى … ماذا رأيتُ؟ نسيت.»

هبَّ واقفًا ولم يزل على وجهه الذهول، وقال: «لن أعزف الكمان مجددًا، أريدك أن تأخذه أنت إلى غرفتك وتحتفظ به، وتعزف لي مرةً أخرى، لم أعرف شيئًا عن الموسيقى حتى سمعتُ عزفك، أشعر كأني لم أكن قد سمعتُ الموسيقى من قبلُ.»

حدَّق في الملاك، ثم أجال نظره في الغرفة من حوله، وهزَّ رأسه وهو يقول: «لم تبعث الموسيقى في نفسي شعورًا كهذا من قبلُ، لن أعزف مرةً أخرى أبدًا.»

الملاك يستكشف القرية

٢٤

أقدم الكاهن على تصرف لا أجده حكيمًا؛ سمح للملاك أن ينزل إلى القرية وحده ليُكوِّن فهمًا أفضل عن البشرية. لم يكن تصرُّفًا حكيمًا، فكيف يتوقع أن يستقبل الناسُ الملاك؟ لا بد أن يجذب الانتباه. لطالما أحاط الكاهن نفسه بهالةٍ من الوقار في القرية، أما أن يحتشد الناس في موكب يعبر الشوارع الرئيسية، فتكثر التعليقات الفضولية، والتفسيرات والإشارات، فكان ذلك أكثر مما يحتمل. وقد يصدر عن الملاك تصرفات يراها الناس غريبة للغاية لا شك. عيونٌ محدقة، لسان حالها يسأل: «ومن هذا الذي أتى به الآن؟» ألم يكن من واجبه أن يُعدَّ عظته في الوقت المناسب؟ انطلق الملاك مبتهجًا وحده بتوجيه من الكاهن، ولم تزل نفسه ملائكيةً نقية لم تعكرها طباع البشر.

مشى الكاهن متمهِّلًا، يداه البيضاوان متشابكتان وراء ظهره المحدب، يوجه وجهه النضر هنا وهناك. حدق في فضول إلى وجوه الناس الذين صادفهم في طريقه. بينما هو كذلك كان طفلٌ يميل لاقتطاف بعض نباتات البيقة وزهر العسل فوقع نظر الطفل عليه، فما كان منه إلا أن تقدم نحوه ووضع ما اقتطف في يده. كان ذلك هو التصرف الطيب الوحيد الذي لاقاه من البشر (فيما عدا الكاهن، وشخصًا آخر). سمع الجدة جاستيك توبخ حفيدتها وهو يمر من الباب: «أيتها المنحرفة المتبجِّحة! أيتها التافهة العديمة النفع!»

توقف الملاك مذهولًا من الكلمات الغريبة التي تلفظت بها الجدة جاستيك: «ترتدين أفضل ملابسك، وتتزينين على أتم ما يكون، ثم تذهبين للقاء لا أدري من، وأنا في المنزل أعمل كالعبيد من أجلك، أي سيدة ستكونين؟ متبرجة لا قيمة لك.»

توقف الصوت فجأة، فعمَّ المكانَ السكون، قال الملاك: «يا للغرابة!» وهو لم يزل يشاهد المشاحنات العديدة. خاطب نفسه مستغربًا: «متبرجة لا قيمة لك!» لم يكن يعرف

أن السيدة جاستيك لاحظته وكانت تتأمل مظهره من وراء الستار. انفتح الباب فجأة، وحدقت في وجه الملاك. كانت غريبة المظهر؛ شعرٌ أبيض مليء بالأتربة، وفستانٌ ورديٌّ متسخٌ مفتوح يُظهر انتفاخ عروق رقبتها، ووجه كرأس وحشٍ غريب، انطلق منه فجأة وابل من الإهانات:

«أليس لديك شيءٌ تفعله غير استراق السمع لما يجري خلف أبواب الناس؟»

حدق فيها الملاك مشدوهًا.

فقالت: «هل سمعت ما قلت؟»

رد الملاك: «هل تعترضين على سماعي؟!»

ردت: «أعترض على سماعك لي؟! بالطبع أعترض، ماذا كنت تظن؟ يا لك من أبله!»

قال الملاك: «لكن إن لم تريديني أن أسمع، فلماذا صرختِ هكذا بصوتٍ عالٍ؟ ظننتك ...»

قالت: «ظننتني ماذا؟! يا لك من ضعيف، أيها الغبي المتطفل، أليس لديك شيءٌ تفعله أفضل من التحديق فيمن قد يصادفك وفَتْح فمك كالأبله ثم نقل الكلام في الأرجاء؟ أيها السخيف الثرثار، يجدر بك أن تخجل من التطفُّل على بيوت الناس واستراق السمع.»

فوجئ الملاك عندما وجد أن سمةً ما في صوتها أثارت في نفسه أسوأ الأحاسيس، وتولدت لديه رغبةٌ قوية في الانسحاب، لكنه قاوم رغبته تلك ووقف يستمع بتهذيب (على عادة قومه في أرض الملائكة في الإنصات لمن يتحدث). لم يفهم ثورتها على الإطلاق؛ إذ لم يجد سببًا لانطلاقها في وصلة الذم التي لم تبدُ لها نهايةٌ قريبة، كما لم يسبق له أن سمع أحدًا يطرح عليه سيلًا من الأسئلة ثم لا ينتظر إجابة.

أطلقت السيدة جاستيك عليه لسانها الحادَّ الذي عُرفت به، فأكدت له أنه ليس رجلًا مهذبًا، وسألته عما إذا كان يعتبر نفسه كذلك، وقالت إن كل المتسولين يفعلون مثله هذه الأيام، وشبهته بالخنزير المذبوح، وأبدت تعجبها من وقاحته، وسألته كيف لا يخجل من نفسه وهو واقف مكانه، وما إذا كانت قد نبتت له جذور ثبتته في الأرض، وأرادت أن تعرف ما كان يقصد بتصرُّفه، وسألته عما إذا كان قد سرق ملابسه من فزاعة الطيور، وقالت إن غرورًا غريبًا وراء سلوكه، وسألته إن كانت أمه تعرف أنه خرج من البيت وحده، وفي النهاية قالت: «لديَّ شيء سيحركك من مكانك.» ثم عادت إلى المنزل وصفقت الباب وراءها.

شعر الملاك بسلامٍ تامٍّ بعد أن ذهبت؛ فقد أُمهل عقله استراحةً يحلل فيها أحاسيسه المضطربة. كفَّ عن الانحناء والابتسام، ووقف مكانه مشدوهًا.

خاطب الملاك نفسه قائلًا: «في هذا الإحساس ألمٌ غريب، يكاد يفوق إحساس الجوع كراهة، ولكنه مختلف عنه، فعندما يكون المرء جائعًا، يشعر برغبة في الأكل. أعتقد أنها كانت امرأة، أريد الانصراف الآن، أعتقد أني سأنصرف.»

استدار ببطء، ومضى في طريقه متفكرًا، ثم سمع باب المنزل يُفتح مجددًا، والتفت فرأى عبر نباتات من الفاصوليا الإسبانية، السيدة جاستيك تحمل قِدرًا مليئًا بماء كانت تغلي فيه ملفوفًا ويتصاعد منه البخار، جاء صوتها من خلف الأزهار القرمزية يقول:

«من الجيد أنك انصرفت يا سارق البنطال، لا تأتِ للتطفُّل واختلاس النظر حول هذا المنزل مرةً أخرى وإلا فسأُعلِّمك الأدب، أنا أعني ما أقول.»

وقف الملاك في ارتباكٍ شديد، لم تكن لديه رغبة في الاقتراب من المنزل مرةً أخرى أبدًا. لم يفهم بالتحديد ماذا أرادت أن تفعل بالقِدر الأسود، لكن شعوره العام كان الاستياء، لم يكن لديه تفسير للأمر.

صاحت السيدة جاستيك بنبرةٍ متصاعدة: «سأفعلها!» وكررت: «حقًّا سأفعلها!»

استدار الملاك ومضى في سبيله، وفي عينَيه نظرةٌ متحيرة.

وخاطب نفسه: «كانت غريبة جدًّا! أكثر غرابة من الرجل القصير المتَّشح بالسواد، وكانت تعني ما تقول، لكني لا أعرف ما كانت تعني.» ثم صمت لبرهة ثم خاطب نفسه مجددًا وهو لم يزل متحيرًا: «أعتقد أنهم جميعًا يعنون شيئًا.»

٢٥

واصل الملاك سَيره حتى اقترب من ورشة الحدادة وأصبح على مرأًى من قاصديها، وكان شقيق ساندي برايت يُثبِّت حَدَواتٍ على حوافر حصانٍ حوذيٍّ من أمبرتون، في حين كان مراهقان يقفان بالقرب من الورشة يتابعان تركيب الحدوات وعلى وجهَيهما أمارات البلادة. وبينما اقترب الملاك استدار المراهقان ثم الحوذي نحوه ببطء بزاوية ضيقة وأخذوا يُحدِّقون فيه بهدوء وثبات، ولم يبدُ على وجوههم أي انطباع.

شعر الملاك لأول مرة بالحرج، واقترب أكثر محتفظًا بنظرة ودٍّ على وجهه، ولو لم يجد ردًّا لها سوى نظراتهم الخالية من التعبير. وكانت يداه خلف ظهره وعلى وجهه ابتسامةٌ مبهجة، وأخذ يراقب الحدَّاد وهو منهمك فيما بدا له شيئًا غير مفهوم. وكانت عيون المراهقَيْن والحوذي موجهةً نحوه، فانشغل بالنظر إلى الثلاثة معًا وتشتَّت انتباهه

وتعثَّر في حجر. فانطلقَت من أحد الأجلاف الثلاثة ضحكة سخرية، وتعذَّر عليه فهم نظرة الملاك المستفهمة، فوكز رفيقه بكوعه ينبهه، ولم ينبس أيٌّ منهما، ولا الملاك، بكلمة.

ولم يكد الملاك يمر من أمامهم، حتى همهم أحدهم بهذا اللحن على نحوٍ عدواني:
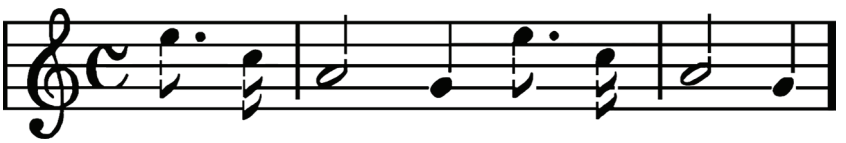
فانفجر الثلاثة بالضحك، وحاول أحدهم أن يتغنَّى ببعض الكلمات فمنعه امتلاء حلقه بالبلغم، ومضى الملاك في طريقه.

قال المراهق الآخر: «من يكون هذا؟»

وكان الحدَّاد حينئذٍ منهمكًا بمطرقته.

قال الحوذي: «ظنني أنه أحد الغرباء عن القرية، يبدو عليه حمق وبلاهة بالغان.»

علق أحد المراهقين بتحذلق: «هكذا هم الأغراب.»

قال الحوذي: «على ظهره شيء يشبه السَّنام كثيرًا، بل هو سَنامٌ بالتأكيد.»

ثم عمَّ الصمت مجددًا، وواصلوا تحديقهم في جسمه المبتعد بدون إبداء أي انطباع.

وبعد صمتٍ طويل قال الحوذي مجددًا: «يشبه السَّنام كثيرًا بالفعل.»

٢٦

استأنف الملاك مشيه في القرية منبهرًا بكل ما يراه، وتناهى إلى سمعه صوت شخص لم يره يدندن بكلمات غير مفهومة تتماشى مع اللحن الذي سمعه من ذلك المراهق عند ورشة الحدادة، فخاطب نفسه متحيرًا: «يبدءون، ثم لا يلبثون أن يتوقفوا، ولكن ماذا يفعلون بين البداية والتوقف؟»

قالت سارة جلو (التي تقطن في ١ تشيرتش كوتدجز)، وهي تنظر من وراء الستار: «هذا هو الكائن الذي أطلق الكاهن عليه النار ببندقيته الكبيرة.»

وقالت سوزان هوبر وقد تملَّكها الفضول: «يبدو فرنسيًّا.»

رأت سارة جلو عينَيه للحظة فقالت: «عيناه جميلتان!»

واصل الملاك تمشيته، مرَّ ساعي البريد بجواره فلمس الساعي قبعته مُحيِّيًا إياه، ثم رأى كلبًا نائمًا تحت أشعة الشمس، وأكمل مشيه فصادف ميندام الخوري، فأومأ ميندام برأسه محييًا من بعيد ومرَّ سريعًا (إذ لم يكن الخوري يريد أن يراه أحد يتحدث مع الملاك في القرية حتى يعرف عنه المزيد). وسمع من أحد المنازل صراخًا عاليًا أصدره طفل، فارتسمت الحيرة على وجهه الملائكي. بعد ذلك وصل الملاك إلى جسرٍ منخفض عن آخر المنازل التي مرَّ بها، فاتكأ على سور الجسر وظل يراقب تتابع شفرات الطاحونة اللامعة.

تابع قنطرة الطاحونة، فخاطب نفسه: «يبدءون، ثم لا يلبثون أن يتوقفوا!» واندفعت المياه تحت الجسر مخضرةً وداكنة يخطُّها الزَّبَد.

ارتفع وراء الطاحونة برج الكنيسة المربع الشكل ووراءه ساحة الكنيسة، وتناثرت على جانب التل شواهد القبور والألواح الخشبية، وأطَّرت ست شجرات زان المشهد كله.

سمع الملاك صوت خطوات واحتكاك عجلات من خلفه، واستدار فرأى رجلًا يرتدي أسمالًا بُنيَّةً متسخة وقبعة من اللِّبْد تكاثرت عليها الأتربة فصبغتها بلونٍ رمادي، كان الرجل يهتزُّ اهتزازًا طفيفًا في وقفته ويُحدِّق في ظهر الملاك، وكان وراءه رجلٌ آخر لا يقل عنه اتِّساخًا، يدفع عربةَ صقلِ سكاكينَ على الجسر.

قال الأول وهو يبتسم ابتسامةً خفيفة ويكتم فُواقه: «طاب صباحك!»

فحدق فيه الملاك، ولم يكن قد سبق له أن رأى ابتسامةً مصطنعة من قبلُ، فردَّ الملاك سائلًا: «من أنت؟»

اختفت الابتسامة المصطنعة وردَّ الرجل، بلسان أثقله السُّكْر: «ليس من شأنك من أنا، ما اسمُك؟»

وجاء صوت الآخر يستحثه من ورائه: «هيَّا!»

كرر الرجل المتسخ بنبرةٍ حادة: «ما اسمك؟ ألا يمكنك إجابتي؟»

وجاء صوت صاحب العربة مجددًا: «هيا أيها الأحمق، أفسح الطريق.» وتراجع بعربته.

قال الملاك: «لا أفهم.»

رد الرجل بكلمات حالت ثمالته دون أن تخرج واضحة: «ألا تفهم؟ سؤال بسيط، ما اسمك؟ ألن تجيبني؟ ألن تفعل؟ لم ترد تحية الصباح، فلتعطني إجابة. لا عليك، فلتفعل ما يحلو لك.»

تحيَّر الملاك، ووقف الرجل السكران يترنَّح لوهلة، ثم سحب قبعته من فوق رأسه فجأة ورماها بين قدمَيِ الملاك، وقال بلهجة مَن حَزَم أمرًا مهمًّا: «حسنًا إذن.»

جاء صوت صاحب العربة مجددًا يقول: «هيًّا!» ووقف على بُعد عشرين ياردةً تقريبًا.

قال الثمل: «أتريد القتال، أيها الـ... سأُلقِّنك درسًا، لا ترد عليَّ تحية الصباح!» ولم يفهم الملاك كلمةً مما قال.

حاول الرجل خلع سترته وهو يقول: «تظنني ثملًا؟ سألقنك درسًا!» وجلس صاحب العربة يشاهد العراك المنتظر. قال الرجل الثمل: «هيا!» وكان معطفه معقدًا، فظل الرجل يترنَّح على الجسر وهو يحاول خلعه، ويتلفَّظ في الوقت ذاته بكلمات التهديد والوعيد. وبعد فترةٍ بدأ الملاك يشكُّ في أن هذه الحركات والأقوال ذات طابعٍ عدائي، واصل الثمل تهديده والسترة عالقة على رأسه تقريبًا: «لن يميز أحدٌ شكلك بعدما أفرغ منك.»

انخلعت السترة أخيرًا واستقرت على الأرض، وكشف الصديري المهترئ الذي كان يرتديه ذلك العامل المتجول الثمل عن جسمٍ عضليٍّ مُشعر لم يخفَ عن عينَي الملاك. وأخذ الرجل وضعية التأهب للقتال.

رفع قبضتَيه أمام وجهه، ورفع كوعيه، وأخذ يتقدم ويتراجع وهو يقول: «امسح هذا الطلاء عنك، هيا!»

ألحَّ قائلًا: «هيا!»

تركز انتباه الملاك على القبضتَين السوداوَين المشعرتَين وهما تتمايلان وتتقدمان وتتراجعان، وصاح الرجل ذو الملابس الرثة: «هيا، سألقنك درسًا!» ثم بصوت أكثر شراسة: «سأنكِّل بك!»

وفجأة اندفع الرجل نحو الملاك، وتحرَّك الملاك بفعل غريزةٍ جديدة عليه، فرفع ذراعه على نحوٍ دفاعي وتفادى هجمة الرجل. كادت قبضة الرجل تصيب كتف الملاك، لكنه أخطأه وسقط أرضًا بفعل اندفاعه وارتطم وجهه بسور الجسر. تردَّد الملاك لوهلة فيما كان عليه فعله بشأن الرجل الذي تكوَّم أرضًا، ثم التفت إلى رفيقه، في حين كان الرجل يقول: «دعني أقف، دعني أقف مرةً أخرى أيها الخنزير، سألقِّنك درسًا!»

شعر الملاك بتقزُّزٍ غريب ونفورٍ شديد، وابتعد عن الرجل الثمل ببطء، وتوجه إلى صاحب العربة، وقال:

«ماذا يعني كل ذلك؟ لا أفهم ذلك!»

رد صاحب العربة منزعجًا: «هذا الأحمق اللعين يقول إن اليوم يوم زفافه الفضي.» ثم نادى صاحبه قائلًا: «هيا!»

وقال الملاك: «زفافٌ فضي؟! ماذا يعني ذلك؟»

رد الرجل: «محض هراء، دائمًا يفتعل عذرًا كهذا، أمرٌ مزرٍ، كان عيد ميلاده البهيج في الأسبوع الماضي، ولم يكد يفيق من الثمالة حتى أفرط في الشراب مجددًا. (هيا أيها الأحمق.)» ثم خاطب رفيقه الثمل: «هيا أيها الأحمق.»

قال الملاك: «لكن، لا أفهم، لمَ يترنح هكذا؟ ولماذا يحاول التقاط قبعته من على الأرض هكذا، ولا يتمكن من الإمساك بها؟»

رد صاحب العربة: «يبدو أن أهل هذا البلد يتسمون بالبراءة حقًّا! لأن الثمالة أعمَتْه! وماذا قد يكون السبب غير ذلك؟ (هيا، عليك اللعنة).» ثم عاد لمخاطبة الملاك: «لأنه شرب حتى لم يعد في جسدِه متَّسعٌ لقطرةٍ أخرى، هذا هو السبب.»

لاحظ الملاك نبرة صاحب العربة فاستصوب أن يكف عن طرح الأسئلة عليه، ووقف بجوار العربة يشاهد الرجل الثمل على الجسر.

«هيا! أعتقد أني سأضطر لالتقاط هذه القبعة، دائمًا ما يثمل هكذا، لم يكن لي شريك مثله من قبلُ، دائمًا يثمل هكذا.»

تأمَّل صاحب العربة قائلًا: «كما لو كان نبيلًا غير مضطر لكسب العيش، ما إن يشرب قليلًا حتى يصبح أبله متهورًا هكذا، ويستفز كل من يصادفه (هاك القبعة)، سأكون محظوظًا إن لم يقدم على استفزاز جيش الاستقلال كله للقتال (يا إلهي! هيا يا رجل!) سأضطر لالتقاط القبعة مجددًا الآن، لا يأبه بالإزعاج الذي يسببه للآخرين.»

شاهد الملاك صاحب العربة يعود ممتعضًا لمساعدة رفيقه في ارتداء القبعة والسترة. ثم التفت الملاك عائدًا إلى القرية وقد بلغت به الحيرة مداها.

٢٧

بعد هذه الواقعة، مضى الملاك في طريقه فتجاوز الطاحونة ووصل إلى ما وراء الكنيسة ليتفقد شواهد القبور.

خاطب الملاك نفسه وهو يقرأ العبارات المنقوشة على شواهد القبور: «لا بد أن هذا هو المكان الذي يضعون فيه الأجزاء المتداعية، كلماتٌ غريبة: رفات! سأنهض من جديد! أي أن أمرهم لم ينتهِ تمامًا، عزيمةٌ قوية.»

ثم قال الملاك بصوتٍ خفيض: «هوكينز؟ هوكينز؟! الاسم غريب عليَّ، لم يمت في ذلك الحين ... الأمر واضح، انضم إلى زمرة السمائيين في ١٧ مايو ١٨٦٣، لا بد أنه شعر باغتراب

هناك كاغترابي أنا هنا، أتساءل لمَ يضعون هذا الإناء فوق الشاهد؟ غريب! هناك العديد من الأواني الحجرية الأخرى، أوانٍ حجريةٌ صغيرة عليها غطاءٌ حجري أيضًا.»

حينئذٍ تدفَّق صبيةٌ كُثرٌ من المدرسة الوطنية، ووقف أحدهم فاغرًا فاه عندما رأى الملاك مُتشحًا بالسواد وواقفًا بين الشواهد البيض، ثم تبعه آخرون وفعلوا مثله، فقال أحدهم: «انظروا إلى ظهره الغريب!»

وقال آخر: «شعره كشعر الفتيات!»

التفت الملاك نحوهم فاستغرب منظر رءوسهم الصغيرة البارزة من وراء الجدار المغطَّى بالأشنة، وابتسم في وجوههم المحدقة ابتسامةً خفيفة ثم التفت إلى السياج الحديدي الذي أحاط بقبر فيتز-جيرفيز، وقال: «إحساسٌ غريب بعدم اليقين، ألواح وأكوام من الحجر وأسيجة، هل يخافون شيئًا ما؟ هل يحاول هؤلاء الموتى النهوض من رقدتهم؟ هناك بعض القمع، التحصينات.»

أخذ ثلاثة من الصبية يغنون معًا: «قص شعرك، قص شعرك.»

خاطب الملاك نفسه: «غريب أمر هؤلاء البشر! بالأمس كان ذاك الرجل يريد قصَّ جناحيَّ، والآن يريد هؤلاء الصغار أن أقصَّ شعري! قريبًا لن يتركوا فيَّ شيئًا.»

صاح صبيٌّ آخر: «من أين لك بهذه القبعة؟» وآخر: «من أين أتيت بهذه الملابس؟»

خاطب الملاك نفسه: «يسألون أسئلة يبدو جليًّا أنهم لا يريدون إجابات لها، ألاحظ ذلك من نبرة حديثهم.» ونظر إلى الصبية الصغار متفكرًا وتابع: «لا أفهم طرائق البشر في التواصل، يبدو أن هذه الإيماءات ودية، طقس من نوعٍ ما، لكني لا أعرف كيف يكون الرد عليها، أعتقد أني سأعود إلى الرجل القصير السمين ذي السلسلة الذهبية المعلقة على بطنه فأطلب منه التفسير.»

استدار واتجه إلى البوابة، وعندئذٍ سمع أحد الصبية الصغار يصيح ويرمي قشرة ثمرة زان. فسقطت على الطريق أمام ساحة الكنيسة، وتوقف الملاك متفاجئًا.

ضحك كل الصبية الصغار، وقلَّد صبيٌّ آخر صيحة الأول ورمى قشرة أصابت الملاك، فذهل ذهولًا بالغًا، وبدءوا جميعًا يصيحون الصيحة نفسها ويقذفون قشور ثمر الزان. وأصابت إحداها يد الملاك، وأصابته قشرةٌ أخرى بجوار أذنه. وتحرك الملاك نحوهم مرتبكًا، وتلفَّظ ببعض كلمات الاحتجاج حتى وصل إلى الطريق. دُهش الصبية الصغار وتملكهم الذهول من فرط ارتباكه وجُبنه. ولم يكن هذا السلوك الذي بدا فيه الحمق مما يُنصح به، غَزُر وابل المقذوفات، ربما تمكنتَ من تخيل هذه اللحظات بوضوح، صبيةٌ صغار متبجِّحون

يطاردونه ويطلقون مقذوفاتهم عليه، وآخرون يُهرعون لإمدادهم بالمقذوفات. وأثار المشهد كلب ميلتون سكريفر الهجين، فأخذ يتراقص بالقرب من قدمَي الملاك (ويتخيل للمشهد تفسيراتٍ عديدة).

وعندئذٍ جاء صوتٌ جهوري يصيح: «مرحبًا! لم أتوقع ...! أين السيد جيرفيز؟ تأدَّبوا! تأدَّبوا! أيها المشاغبون الصغار!»

تفرق الصغار يمنة ويسرة، وتسلق بعضهم الجدار إلى الملعب، وأسرع بعضهم بطول الشارع.

اقترب منه كرامب قائلًا: «هؤلاء الصغار أصبحوا كالآفة المزعجة! أعتذر عن مضايقتهم إياك.»

بدا على الملاك بعض الانزعاج وقال: «لا أفهم؛ هذه التصرفات البشرية ...»

قاطعه كرامب: «نعم أعرف، غريبة عليك بالطبع، كيف أصبحت زوائدك؟»

قال الملاك: «كيف أصبح ماذا؟»

قال كرامب: «الطرفان الزائدان، كيف أصبحا؟ الآن بعد أن نزلت إلى الشارع هكذا، تفضل بالدخول، تفضل ودعني أُلقِ نظرةً أخرى عليهما، يا لهؤلاء الصغار المشاغبين! سأخرج هؤلاء المشاغبين من المنزل. كلهم سواء في هذه القرى، لا يفهمون شيئًا يخرج عما ألفوه، يرون غريبًا ذا هيئةٍ مختلفة، فيقذفونه بالأحجار، لا يتعدَّى خيالهم حدود الأبرشية. سأعطيكم دواءً مليئًا إذا رأيتكم تضايقون الغرباء مرة أخرى! أعتقد أن هذا هو المتوقع، تفضَّل من هنا.»

هُرع الملاك إلى العيادة لتبديل ضمادة جرحه ولم يزل الارتباك يتملَّكه.

رؤية السيدة هامرجالو

٢٨

في حديقة سيدرمورتون كان يوجد منزل سيدرمورتون الذي كانت السيدة هامرجالو العجوز تعيش فيه، وتطَّلع على كل كبيرة وصغيرة في القرية، عجوزٌ محببة ذات عنقٍ طويل، في وجهها بعض الحمرة، تنفجر بغضباتٍ مفاجئة أحيانًا، ترى أن علاجاتٍ ثلاثة تكفي للتغلُّب على كل ما قد يحل بمن ترعاهم من متاعب؛ زجاجة من مشروب «الجن»، أو بطانيتان مما تبرع به بعض الخيِّرون، أو تركيب قطعةٍ جديدة من تيجان الأسنان. يبعد المنزل عن سيدرمورتون ميلًا ونصف الميل، وتمتلك السيدة هامرجالو كل القرية تقريبًا، ما عدا جزءًا طرفيًّا في الجنوب يملكه السيد جون جوتش، وتحكمه هي حكمًا مطلقًا، حكمًا مستحسنًا في هذه الأيام التي تعاني فيها الحكومة الانقسام. تأمر بالزيجات أو تمنعها، وتطرد الأشخاص غير المرغوب فيهم من القرية بطريقةٍ بسيطة هي رفع قيمة إيجار مساكنهم، وتسرِّح العمال، وتلزم المهرطقين بارتياد الكنيسة، أجبرت سوزان دانجيت التي أرادت أن تسمي رضيعتها يوفيميا بأن تسميها اسمًا مسيحيًّا هو ماري–آن بدلًا من ذلك، بروتستانتيةٌ مخلصة، تمتعض من تناقص شعر الكاهن على نحو يجعله يبدو كالرهبان. وهي عضوة في مجلس القرية، يكابد الأعضاء الآخرون مشقة في تسلُّق التل وعبور المستنقع للوصول إليها، (ولما كان سمعها ضعيفًا) وقد باتوا يضطرون إلى إلقاء خطابات المجلس في مذياعٍ بدلًا من أن يكون الحديث على المنصة بدونه. لا تهتم بالسياسة، ولكنها كانت حتى العام الماضي معاديةً شرسة لجلادستون، تقوم على خدمتها خادمات بدلًا من الأُجراء الرجال، بسبب هوكلي، سمسار البورصة الأمريكي، ومعاونيه الأربعة المتربصين.

يصل افتتان أهل القرية بها إلى حدٍّ يُمَكِّنُها من فرض سطوتها عليهم. إذا أقسمتَ بالرب في حانة كات آند كورنوكوبيا فلن يوليك أحد ممن يسمعونك اهتمامًا كبيرًا، أما إن أقسمتَ بالسيدة هامرجالو لَهالهم ذلك وأرهبهم لدرجةٍ قد تجعلهم يطردونك من المكان. إذا نزلت بسيدرمورتون فإنها ترسل في طلب بيسي فلامب مديرة مكتب البريد، وتسمع منها كل كبيرة وصغيرة عن الأحداث والأحوال، ثم ترسل في طلب السيدة فينش حائكة الفساتين وتسألها، ثم تضاهي أقوالها بأقوال بيسي فلامب. وفي بعض الأحيان تطلب الكاهن، وفي أحيانٍ أخرى تطلب السيدة ميندام، رغم أنها تزدريها، حتى إنها لترسل في طلب كرامب نفسه أحيانًا، لتضاهي أقوالهم جميعًا وتصل إلى الخبر اليقين. كاد حصاناها المطهمان يدهسان الملاك وهو يسير عائدًا إلى القرية.

التفتت السيدة هامرجالو حاملة أمام عينيها النظارة ذات الإطار المطلي بالذهب التي تحملها دائمًا على عصا صغيرة بيدَيها الهزيلتَين المرتعشتَين ونظرت إلى الملاك وقالت: «هذا هو الغريب إذن! معتوه بالفعل! لكن وجهه جميل هذا المسكين، يؤسفني أن فاتتني رؤيته عن قرب.»

ومضت في طريقها إلى منزل الكاهن على أي حال، وطالبت بإطلاعها على الأمر كله بالتفصيل؛ إذ كان تضارب روايات السيدة فلامب، والسيدة فينش، والسيدة ميندام وكرامب عن الأمر قد حيَّرها كثيرًا. حاول الكاهن جاهدًا ألَّا يغفل تفصيلة وهو يخبرها بحقيقة ما حدث متحدثًا في بوقها لتتمكن من سماعه. حاول الكاهن في كلامه أن يتلطف في ذكر الجناحَين والرداء ذي اللون الزعفراني. بيد أنه شعر بأن الحالة ميئوس منها، فأسمى الملاك بالسيد آنجيل، وتحدث عن طيورٍ شبيهة بطائر الرفراف. لاحظت العجوز ارتباكه، وظل رأسها الغريب يتحرك إلى الأمام والخلف، ظل ممسكًا بالبوق لا يجد ما يقول أحيانًا، وأخذت تضيق عينيها وتحدق فيه أحيانًا أخرى دون أن تفهم التفسيرات التي يتفوَّه بها، وظلت بين الفينة والأخرى تُصدر أصواتًا تدل على المتابعة والفهم، فتبين له من ذلك أنها قد فهمت بعضًا مما قال.

قالت السيدة هامرجالو: «طلبتَ منه البقاء معك على نحوٍ دائم، أليس كذلك؟» وكانت فكرةٌ عظيمة قد بدأت تتبلور سريعًا في عقلها.

رد الكاهن: «بلى، ربما بدون أن أقصد ذلك.»

سألته: «وأنت لا تعرف من أين أتى؟»

رد الكاهن: «لا علم لديَّ على الإطلاق!»

سألت السيدة هامرجالو بلهجةٍ غامضة: «ولا تعرف من أبوه بالطبع؟»

رد الكاهن: «كلا.»

أبقت السيدة هامرجالو النظارة على عينَيها، ووكزته بين ضلوعه ببوقها فجأة على نحو ذي دلالة.

فهم الكاهن الإشارة فصاح مندهشًا: «سيدة هامرجالو!»

قالت: «هذا ما أظن، ولا تعتقد أني ألومك يا سيد هيليار.» وأطلقت ضحكةً غريبة ثم واصلت: «العالم هو العالم، والرجال هم الرجال، وذلك الفتى معاق، أليس كذلك؟ وفي حالة حداد كما لاحظت، الأمر يذكرني برواية «الحرف القرمزي»، أمه متوفاة على ما أفترض، لستُ امرأةً ضيقة الأفق، وأحترمك لاحتفاظك به، أحترمك حقًّا.»

قال الكاهن: «لكن، يا سيدة هامرجالو!»

قاطعته: «لا تفسد الأمر بالإنكار، الأمر واضح وضوح الشمس لأي امرأة من هذا العالم. السيدة ميندام تلك! تسليني بشكوكها وأفكارها الغريبة! وهي أيضًا زوجة الخوري، لكن أتمنى ألَّا يكون الأمر قد حدث بعد ترسيمك كاهنًا.»

رد الكاهن: «سيدة هامرجالو، أنا أحتجُّ، يا للهول!»

قالت: «سيد هيليار، بل أنا من أحتجُّ، أعرف الحقيقة، أي شيء قد تقوله لن يزعزعني عن رأيي قيد أنملة، لم يدُر بخَلَدي يومًا أنك تخفي أسرارًا.»

رد الكاهن: «هذا اتهام لا أقبله!»

قالت السيدة هامرجالو بتلطُّفٍ ظاهر: «سنساعده معًا يا سيد هيليار، يمكنك الاعتماد عليَّ، القصة رومانسية للغاية.»

قال الكاهن: «لكن يا سيدة هامرجالو، يجب أن أقول ما لديَّ!»

أمسكت ببوق الأذن بحزم وهزَّت رأسها رافضة الاستماع.

ثم قالت: «سمعت أن لديه موهوبةً فذة في الموسيقى، صحيح أيها الكاهن؟»

قال الكاهن: «أقسم لك بأغلظ الأيمان أن ...»

ردت: «هذا ما ظننت، أما عن إعاقته ...»

قاطعها: «الفكرة التي تكونت لديكِ في غاية الـ...»

فقاطعته بدورها: «إذا كانت موهبته حقًّا كما وصفت لي جيهورام، فـ...»

قال الكاهن: «هذه تهمة لا أساس لها؛ تلك التي توجهينها لرجل في مثل ...»

(لا أعول على سداد رأيها بالطبع!)

واصل الكاهن: «فكري في وضعي، ألا أستحق أي توقير؟»

في حين واصلت: «قد نتمكن من مساعدته في مسعاه الفني.»

قال الكاهن: «أَوَلَمْ ... (تبًا! لا جدوى!)»

قالت السيدة: «أقترح يا عزيزي الكاهن أن نمنحه الفرصة لإظهار موهبته، كنتُ أفكر في الأمر في طريقي إلى هنا، وقررت أن أدعو عددًا صغيرًا من أصحاب الذوق الرفيع يوم الثلاثاء القادم، ولتجعله يُحضر كمانه، حسنًا؟ وإذا جرى ذلك على ما يُرام، فسأحاول أن أعرفه على من يمكنهم إعطاءه دفعةً قوية.»

قال: «لكن، يا سيدة هامرجالو ...»

فقاطعته: «لا أريد أن أسمع كلمةً أخرى!» ولم تزل ممسكة ببوقها أمامها بحزم، وقابضة على نظارتها، ثم قالت: «عليَّ ألَّا أترك ذينك الحصانَين طويلًا، يستاء كاتلر كثيرًا عندما أتركهما لوقتٍ طويل؛ فالمسكين يملُّ من الانتظار، إلا إذا كان هناك حانة بالجوار.» وانطلقت نحو الباب.

خاطب الكاهن نفسه: «اللعنة!» ولم يكن قد سبق له أن استخدم الكلمة منذ ترسيمه، ويظهر مدى الاضطراب الذي أحدثَتْه زيارة الملاك في نفسه.

وقف تحت الشرفة يشاهد العربة تبتعد، في حين شعر أن عالمه ينهار فوق رأسه، هل عاش حياة الفضيلة والزهد لثلاثين عامًا بلا طائل؟ يا لَغرابة هذه الأشياء التي ظنَّه أولئك القوم قادرًا عليها! وقف يحدِّق في حقل الذرة الأخضر الممتد أمامه، ثم نقل نظره إلى القرية من ورائه. بدا كل شيء حقيقيًّا بالفعل، برغم أنه شك في ذلك لأول مرة في حياته. عبث بذقنه، ثم التفت وصعد مبطئًا إلى غرفة الملابس، وجلس لوقتٍ طويل يحدق في رداء من نسيجٍ أصفر ويخاطب نفسه: «أعرف والده؟! إنه خالد، كان يرفرف بجناحَيْه في جنته عندما كان أسلافي من فصيلة الجرابيات، ليته كان هنا الآن.»

نهض الكاهن وبدأ يتحسَّس الرداء.

أخذ يتساءل: «تُرى كيف يحصلون على هذه الأشياء؟!» ثم خرج وظل يحدق من النافذة ويقول: «أفترض أن كل شيء هناك رائع، حتى شروق الشمس وغروبها، وأفترض أن أحدًا لا يصرُّ على أي اعتقاد إصرارًا أعمى، ولكن لا بد أن المرء يعتاد الأشياء كلها فلا يدهشه شيء، ربما كان ذلك عيبًا. أشعر كأن غشاوة قد زالت عن عيني فجأة، وأن حالةً شديدة من انعدام اليقين داهمتني، لم أشعر بمثل هذا الاضطراب منذ مراهقتي.»

مغامرات أخرى للملاك في القرية

٢٩

قال كرامب بعد تبديل الضمادة: «كل شيء على ما يُرام، لا شك أن ذاكرتي تخدعني فتصور لي أن زائدتَيك تبدوان أصغر مما كانتا بالأمس، أعتقد أني كنت متفاجئًا بهما بالأمس، فلتتناول الغداء معي قبل أن تنصرف من هنا، وجبة منتصف اليوم أقصد، سيعود الصغار إلى المدرسة مجددًا بعد الظهر.»

وواصل وهما في الطريق إلى غرفة الطعام: «لم أرَ جرحًا يندمل بهذه السرعة قط، لا بد أن دمك ولحمك نقيان لأقصى درجة.» وأضاف بصوت حاول خفضه: «بصرف النظر عما قد تظن.»

على مائدة الغداء راقب كرامب الملاك عن كثب، وأخذ يستدرجه للانفتاح في الحديث.

فقال فجأة: «هل أتعبتك الرحلة بالأمس؟»

رد الملاك: «الرحلة؟! نعم شعرت ببعض التيبس في جناحيَّ.»

خاطب كرامب نفسه: «لا تنخدع! أعتقد أني سأضطر إلى الدخول في صلب الموضوع.»

وقال للملاك: «طرت المسافة كلها إلى هنا؟ لم تستخدم أي مركبة؟»

رد الملاك وهو يضع بعض الخردل: «لم يكن ثمة وسيلةٌ أخرى، كنت أطير في تناغم مع بعض كائنات الجريفين والكاروبيم الناري، ثم حل ظلامٌ دامس ووجدت نفسي في عالمكم هذا.»

قال كرامب: «يا للعجب! لذلك لم تكن معك أي أمتعة.» ومسح فمه بمنديل المائدة، في حين بدت في عينَيه ابتسامة خفيفة.

وواصل: «أفترض أنكم تعرفون عالمنا هذا جيدًا؟ تراقبوننا من فوق الجدران العالية الصلبة أو شيء من هذا القبيل، صحيح؟»

رد الملاك: «لا نعرفه جيدًا، نحلم به أحيانًا تحت ضوء القمر، عندما تداهمنا الكوابيس.»

قال كرامب: «بالطبع، تصور شاعري للغاية، أتود شرب بعض البورجوندي؟ إنه بجوارك مباشرة.»

ثم واصل: «هناك اقتناع في عالمنا هذا بأن زيارات الملائكة ليست نادرة أبدًا، ربما سبق لبعض من أصدقائك الترحال؟ من المفترض أن يتنزلوا على المسجونين الذين يستحقون الزيارة، ويؤدوا بعض الرقصات المتناغمة أو شيئًا من هذا القبيل، مثلما يرد في رواية فاوست.»

رد الملاك: «لم أسمع قط بأي شيء مثل ذلك.»

قال كرامب: «منذ أيامٍ قليلة أكدت لي سيدة كنت أعالج رضيعها من عسر الهضم أن تعبيراتٍ معينة ترتسم على وجه الرضيع تدل على أنه يحلم بالملائكة، تعتبر السيدة هينري وود في رواياتها ذلك نذيرًا أكيدًا للموت المبكر، ألا يمكنك تقديم أي إيضاحات عن هذا العَرَض الغامض؟»

قال الملاك متحيرًا لا يفهم ما يقصده الطبيب: «لا أفهم ذلك على الإطلاق.»

خاطب كرامب نفسه: «بدأ يمتعض، يظن أني أسخر منه.»

ثم خاطب الملاك: «شيءٌ واحد يثير فضولي؛ هل يشكو الوافدون الجدد كثيرًا ممن يقدمون لهم الرعاية الطبية؟ لطالما تخيلت أن هناك الكثير من الحديث عن العلاج باستخدام الماء في البداية، كنت أشاهد صورة في الأكاديمية في شهر يونيو الماضي ...»

قال الملاك: «وافدون جدد؟! لا أفهمك على الإطلاق.»

حدق فيه الطبيب وقال: «ألا يفدون إليكم؟»

قال الملاك: «يفدون؟ من؟»

رد الطبيب: «الناس الذين يموتون هنا.»

سأل الملاك: «بعد أن يتداعوا هنا؟»

رد الطبيب: «هذا هو الاعتقاد الشائع.»

قال الملاك: «تقصد أشباه المرأة التي وقفت تصرخ أمام الباب، أو الرجل ذا الوجه الأسود الذي كان يتلوَّى على الجسر، أو الصغار البغيضين الذين كانوا يقذفون القشور، كلا، لم أرَ مثل هذه المخلوقات قط قبل أن أقع في هذا العالم.»

رد الطبيب: «عجيب! ستقول لي بعد ذلك إن زيَّك الرسمي ليس أبيض اللون وإنك لا تجيد العزف على القيثارة.»

قال الملاك: «لا يوجد ما يسمى بالأبيض في أرض الملائكة، ما لدينا هو ذلك اللون الخالي الذي ينتج عن مزج كل الألوان الأخرى.»

غيَّر الطبيب نبرة صوته فجأة وقال: «سيدي العزيز! يبدو أنك لا تعرف شيئًا عن الأرض التي تأتي منها؛ فالأبيض أساسها.»

حدق الملاك فيه ليحاول التأكد من أنه لا يمزح، فوجد ملامحه جادةً تمامًا.

قال كرامب: «انظر!» وتوجَّه إلى طاولة كانت عليها نسخة من مجلة الأبرشية، فأحضرها إلى الملاك، وفتحها على الملحق الملون وواصل: «يمكنك أن ترى أن الأجنحة ليست وحدها ما يميز الملائكة، فهناك اللون الأبيض، والرداء المجعد الذي يطير في السماء مع ضربات الأجنحة، هؤلاء ملائكة وفقًا لأكثر المصادر موثوقية. انظر إلى شعرهم الهيدروكسيلي، أحدهم يُمسك بقيثارة، وآخر يساعد سيدةً ملائكيةً صغيرة لم تنبت أجنحتها بعدُ، يساعدها على الطيران.»

قال الملاك: «لكن، في الحقيقة، هؤلاء ليسوا ملائكة على الإطلاق.»

قال كرامب: «بل هم كذلك.» وأعاد وضع المجلة على الطاولة وجلس مفعمًا بالرضا وواصل: «أؤكد لك أني أعرف ذلك من أكثر المصادر موثوقية ...»

«أؤكد لك ...»

مطَّ كرامب جانبي فمه وهز رأسه كما فعل مع الكاهن وخاطب نفسه: «لا فائدة! لا يمكننا تغيير أفكارنا بسبب زائر غير مسئول.»

قال الملاك: «إذا كان هؤلاء ملائكة، فهذا يعني أني لم أكن في أرض الملائكة قط.»

قال كرامب وقد أحسَّ بنشوة الانتصار: «بالضبط، هذا ما أعنيه.»

حدق الملاك فيه منبهرًا لدقيقة، ثم تملكته — للمرة الثانية — حالة من الضحك البشري.

وانتقلت عدوى الضحك إلى كرامب وقال: «كنت أعرف أنك لست مجنونًا إلى الحد الذي كان يبدو عليك.»

وظلا حتى فرغا من الغداء في حالة من الابتهاج، لسببَين مختلفَين تمامًا، وأصرَّ كرامب على معاملة الملاك باعتباره سلالة أنقى من كائن «الدورج» الخرافي الشبيه بالكلب.

٣٠

بعد أن غادر الملاك منزل كرامب صعد التل مجددًا نحو منزل الكاهن، ولكنه — بإيعاز من رغبته في تجنب السيدة جاستيك على الأرجح — انعطف من عند البوابة وسلك طريقًا فرعيًّا من جانب حقل لارك ومزرعة برادلي.

صادف مشرَّدًا يغفو في سلامٍ بين الزهور البرية، فتوقف يراقبه منبهرًا بالسكينة التامة التي بدت على وجهه. وبينما هو كذلك استيقظ المشرَّد ونهض، وكان شاحب الوجه متشحًا بملابسَ سوداء حال لونها، يعتمر قبعةً قابلة للطي تضفي على مظهره بعض الانكسار وتميل على إحدى عينَيه. قال المشرد بود: «طاب عصرك، كيف حالك؟»

كان الملاك قد أتقن كيفية الرد على هذا السؤال، فاستحضره من فوره: «أنا بخير، شكرًا لك.»

نظر المشرد إلى الملاك بعينٍ فاحصة، وقال: «أتقصد مكانًا ما مشيًا على الأقدام مثلي يا صديقي؟»

تحير الملاك منه، ثم سأله: «لماذا تنام هكذا بدلًا من النوم على سرير؟»

رد المشرد: «يا للعجب! لماذا لا أنام على سرير؟ الأمر أنهم يطلون حوائط قصر ساندرينجام، وهناك مشكلة في الصرف في قلعة ويندسور، وليس لديَّ بيتٌ آخر أقصده، أليس في جيبك ثمن كأس من الجعة؟»

رد الملاك: «ليس في جيبي شيء.»

سأل المشرد وهو ينهض بصعوبة ويشير إلى أسطح المنازل المتكتلة أسفل التل: «هل هذه قرية سيدرمورتون؟»

رد الملاك: «نعم، هكذا يسمونها.»

قال المشرد متحمسًا: «كنت متأكدًا من ذلك، قريةٌ صغيرةٌ جميلة.» وتمطَّى وتثاءب، ووقف يشاهد المكان متفكرًا ثم قال: «المنازل، والمزروعات ...» وأشار إلى حقول الذرة والبساتين، ثم تابع: «تبدو مريحةً، أليس كذلك؟»

قال الملاك: «لها جمالها الخاص.»

قال المشرد: «جمالها الخاص؟! يا للعجب! أريد أن أترك هذا المكان المقيت، وُلدتُ هنا.»

قال الملاك: «يا للهول!»

قال المشرد: «نعم، وُلدتُ هنا، هل سمعت عن الضفادع المنزوعة الدماغ؟»

رد الملاك: «ضفادع منزوعة الدماغ؟! كلا!»

قال المشرد: «هذا ما يفعله مشرحو الحيوانات هنا، يأخذون ضفدعًا وينزعون دماغه، ويدسون مكانه حشوة أخرى، هذا ما أقصده بالضفادع المنزوعة الدماغ. هذه القرية مليئة بالبشر المنزوعي الدماغ.»

أخذ الملاك كلام المشرد على محمل الجد وقال: «أجادٌّ أنت فيما تقول؟»

رد المشرد: «نعم، صدقني، ما من أحد فيها إلا وقد انتزع دماغه ودُست بدلًا منه حشوة من الحطب المتعفِّن، هل ترى ذلك المكان الأحمر الصغير هنالك؟»

قال الملاك: «هذه هي المدرسة الوطنية.»

قال المشرد في ترفُّع: «نعم، هناك يُجرون العملية.»

قال الملاك: «حقًّا؟! هذا مثير جدًّا.»

أضاف المشرد: «الأمر منطقي، لو كانت لديهم أدمغة لكانت لديهم أفكار، ولو كانت لديهم أفكار لتمكنوا من التفكير المستقل، وإذا جُبتَ هذه القرية من أقصاها إلى أقصاها فلن تجد واحدًا منهم يفكر باستقلالية، منزوعو الدماغ، أعرف هذه القرية؛ فقد ولدتُ بها، لولا أني قاومت محاولتهم انتزاع دماغي لكنت فيها الآن أكدُّ في العمل أجيرًا لمن يفوقونني قدرًا.»

سأل الملاك: «وهل هذه العملية مؤلمة؟»

أجابه المشرد: «نوعًا ما، لكنها لا تؤلم الرأس نفسه، يدوم مفعول العملية طويلًا، يأخذون الناس في صغرهم إلى المدرسة ويقولون لهم تعالوا نطوِّر عقولكم، فينصاع الصغار بكل بساطة؛ ومن ثم يبدأ القائمون على المدرسة في عملية الحشو، شيئًا فشيئًا ينزعون أدمغتهم اللزجة الطازجة، ويدسون مكانها الحشوة الصلبة الجافة من التواريخ والقوائم وما شابه، فيخرجون من المدرسة وقد انتُزعت أدمغتهم، ويصيرون طيِّعين لطفاء، يلمسون قبعاتهم تحيةً لأي شخص ينظر إليهم، حيَّاني أحدهم بلمس قبعته لي بالأمس، ثم ينطلقون في الأرجاء نشطين مستعدين للقيام بأرذل الأعمال، ويشعرون بالامتنان فقط لأن أحدًا سمح لهم بمواصلة العيش، حتى إنهم يفخرون بالعمل الشاق، أليس ذلك دليلًا على انتزاع أدمغتهم؟ أترى ذلك الذي يحرث هناك؟»

قال الملاك: «نعم، هل هو منزوع الدماغ؟»

قال المشرد: «نعم، وإلا انطلق في الأرض مثلي ومثل الحواريين المباركين.»

قال الملاك مرتابًا: «بدأت أفهم.»

قال المشرد المتفلسف: «كنت أعلم أنك ستفهم؛ فقد أدركت أنك من الصنف الصحيح. أليس الأمر سخيفًا؟ بعد قرون من الحضارة، انظر إلى هذا الخنزير المسكين هناك، يكد في العمل والحرث على جانب التل حتى يتصبَّب عرقًا غزيرًا هكذا، وهو إنجليزي، أي أنه ينتمي إلى أسمى عرق في الخليقة، إنه أحد الحكام، شيء يُضحك حتى أمثالي من الزنوج. العَلَم الذي ظل مرفوعًا ألف سنة من المعارك والعواصف علمُه. ولم يكن في العالم بلدٌ أكبر عظمة وأرفع مجدًا من بلده قط، وهذا ما يكون حالنا عليه في نهاية المطاف؟ سأخبرك بقصةٍ ربما لم تسمع بها لأنك غريب عن هنا على ما يبدو. هناك رجلٌ يُدعى جوتش، السيد جون جوتش، عندما كان شابًّا يافعًا في أوكسفورد، كنت أنا طفلًا في الثامنة، وكانت أختي في السابعة عشرة. كانت أختي خادمة في منزله، ولكن ... يا إلهي! سمع الجميع بهذه القصة، فهي شائعةٌ جدًّا، وتتكرر كثيرًا مع أمثاله.»

قال الملاك: «لم أسمع بها.»

قال المشرد: «كل ما في الفتيات من جمال وحيوية يقضون عليه، وكل رجل به بعض الشجاعة أو روح المغامرة يرفض شرب ما ترسله إليه زوجة الخوري بدلًا من الجعة ويلمس قبعته صاغرًا، أو يكف يده عن الأرانب والطيور؛ يُطرد من القرية منبوذًا، ثم يتحدثون عن تحسين النسل! أما من يمكثون بعد ذلك فليسوا خليقين برفع عيونهم في وجه زنجي، بل إن ذوي الأصول الصينية لَينظرون لهم شزرًا.»

قال الملاك: «لكن، لم أفهم قصدك.»

وعندئذٍ أوضح المشرد المتفلسف قصده، وقصَّ على الملاك القصة البسيطة للسيد جون كوتش وعاملة المطبخ. ليس من الضروري تكرار تلك القصة، لكن لا بد أن القارئ يفهم أنها أثارت حيرة الملاك، استخدم المشرد كلماتٍ كثيرة لم يفهمها الملاك؛ إذ كان التجديف وسيلة المشرد الوحيدة في التعبير عن مشاعره. وعلى الرغم من ذلك العائق اللغوي، تمكن المشرد من إخبار الملاك بقناعته (التي لا أساس لها على الأرجح) بظلم الحياة وقسوتها، ودناءة السيد جون كوتش الشديدة.

وكان آخر ما رأى الملاك من المشرد ظهره الأسود المترب يبتعد في اتجاه إبينج هانجر. وظهر طائر الذيال على جانب الطريق، فالتقط المشرد المتفلسف حجرًا من فوره وقذف به الطائر فأصابه وانطلق الطائر مبتعدًا يقرقر، ثم سلك المشرد منعطفًا وغاب عن النظر.

اتساع رؤية السيدة جيهورام

٣١

أخذت السيدة جيهورام كوبًا من الشاي من السيدة ميندام وقالت: «سمعت شخصًا يعزف الكمان في منزل الكاهن وأنا في طريقي إلى هنا.»

قالت السيدة ميندام: «الكاهن يعزف، تحدثت إلى جورج في الأمر، لكن بلا جدوى، لا أعتقد أنه ينبغي أن يسمح للكاهن بمثل هذه الأشياء، هذا غريب، لكنه ...»

قاطعتها السيدة جيهورام: «أعرف ذلك يا عزيزتي، لكني سمعت عزف الكاهن في الفصل المدرسي ذات مرة، ولا أعتقد أن ما سمعت كان عزفه. كان عزفًا بارعًا للغاية، وجديدًا على أذنيَّ. أخبرت السيدة هامرجالو بذلك هذا الصباح، أعتقد أن ...»

قاطعتها السيدة ميندام: «المجنون؟! هذا محتمل جدًّا، ذوو الإعاقة العقلية هؤلاء، يا للهول! أعتقد أني لن أنسى ذلك الموقف الفظيع أبدًا، بالأمس ...»

قاطعتها السيدة جيهورام: «ولا أنا.»

قالت السيدة ميندام: «ابنتاي المسكينتان! عقدت الصدمة لسانيهما. كنت أخبر السيدة هامرجالو ...»

قالت السيدة جيهورام: «صمتهما هو ما يقتضيه التهذيب، كان الموقف فظيعًا بالنسبة إليهما يا عزيزتي.»

سألت السيدة ميندام: «أخبريني بصراحة يا عزيزتي، هل تعتقدين فعلًا أن ذلك المخلوق كان رجلًا؟»

ردت السيدة جيهورام: «كان عليكِ أن تسمعي عزفه على الكمان.»

قالت السيدة ميندام: «لا يزال ظني يذهب إلى أن ... جيسي ...» ومالت إلى الأمام كمن تريد أن تهمس بشيء.

وأخذت السيدة جيهورام قطعة كعك، وقالت: «أنا متأكدة أن اللحن الذي سمعته هذا الصباح لا يمكن لامرأة أن تعزفه.»

قالت السيدة ميندام: «إذا كان هذا رأيك فلا رأي بعده بالطبع.» كانت السيدة جيهورام صاحبة القول الفصل في سيدرمورتون في كل ما له صلة بالفن والموسيقى والأدب الجميل، وكان زوجها الراحل شاعرًا لم يذع صيته، لكن السيدة ميندام أضافت بنبرة حكمة: «ومع ذلك ...»

قاطعتها السيدة جيهورام: «هل تعرفين؟ أميل بعض الشيء لتصديق قصة الكاهن.»

قالت السيدة ميندام: «يا للطفك يا جيسي!»

ردت جيهورام: «فكِّري في الأمر، لا أعتقد أنه من الممكن أن يكون قد استضاف أحدًا في منزله قبل تلك الظهيرة، أنا متأكدة من أننا كنا سنسمع بذلك لو حدث. لا يمكنني أن أتصور أن قطًّا شاردًا يمكن أن يصل إلى بُعد أربعة أميال من سيدرمورتون بدون أن يصلنا خبره، الناس هنا ينقلون الأخبار، فإذا كان ...»

قالت السيدة ميندام: «لم أثق في الكاهن يومًا، فأنا أعرفه.»

قالت جيهورام: «لكن القصة معقولة، إذا كان السيد آنجيل هذا ماهرًا جدًّا وغريب الأطوار فربما ...»

قالت ميندام: «لا بد أن يكون غريب الأطوار جدًّا ليرتدي ما كان يرتديه، ثمة درجات وحدود لكل شيء يا عزيزتي.»

قالت جيهورام: «لكن التنورات ...»

أكملت ميندام جملتها: «عادية جدًّا في مرتفعات اسكتلندا.»

وقعت عينا السيدة جيهورام على نقطةٍ سوداء تتحرك ببطء قاطعةً امتدادًا من الخضرة المائلة إلى الاصفرار التي تكسو التل.

فقالت: «ها هو ذا، في الجانب البعيد من حقل الذرة، أنا متأكدة أن ذاك هو، يمكنني أن أرى حدبة، إلا إذا كان رجلًا يحمل كيسًا على ظهره. بركاتك أيتها العذراء! إليكِ المنظار، يفيد في النظر إلى منزل الكاهن! نعم إنه ذلك الرجل، وجهه جميلٌ جدًّا.»

بشيء من الإيثار أعطت مضيفتها المنظار، وعمَّ الصمت لدقيقة.

قالت السيدة ميندام: «ملبسه وقور جدًّا الآن.»

قالت السيدة جيهورام: «جدًّا.»

فترة صمت.

قالت السيدة ميندام: «يبدو ممتعضًا.»

وأضافت جيهورام: «ومعطفه مليء بالغبار.»

قالت السيدة ميندام: «مشيته متزنة، أو هكذا يبدو لي، الطقس حار.»

فترة صمت أخرى.

ثم وضعت السيدة جيهورام المنظار، وقالت: «اسمعي يا عزيزتي، ما كنت سأقوله هو أنه ربما كان عبقريًّا متنكرًا.»

ردت ميندام: «إذا اعتبرنا هذا تنكرًا.»

قالت جيهورام: «لا شك أن الأمر كان غريبًا، لكني رأيت أطفالًا يرتدون قمصانًا صغيرة، لا يختلفون كثيرًا عنه. هم والكثير من المبدعين يتسمون بغرابة الملبس والطباع. قد يقدم المبدع على ما لا يتجرأ غيره على التفكير فيه. لا أستبعد أن يكون مشهورًا تثير بساطتنا المفرطة سخريته. كما أن ملبسه الذي أثار كل هذه الضجة لم يكن فاضحًا بقدر تلك الملابس التي باتت السيدات يرتدينها لركوب الدراجة. رأيت صورة نموذج منها في إحدى الصحف المصوَّرة منذ عدة أيام — صحيفة «ذا نيو بادجيت» إن لم تخنِّي الذاكرة — ملابس ضيقة جدًّا يا عزيزتي. أُصرُّ على أنه عبقري، خاصة بعد عَزْفه، أنا متأكدة من أنه ليس مدعيًا. وربما كان مسليًا جدًّا في الحقيقة. سأطلب من الكاهن أن يُعرِّفني عليه.»

صاحت السيدة ميندام: «يا للهول!»

قالت السيدة جيهورام: «أنا مُصرَّة.»

علقت السيدة ميندام: «أخشى أن هذا تهورٌ منك، العباقرة وأمثالهم كلهم في لندن، ليسوا هنا في منزل الكاهن.»

قالت السيدة جيهورام: «سنخبر القوم، أحب الأصالة، أخطِّط لرؤيته على أي حال.»

قالت السيدة ميندام: «احذري من أن تري منه أكثر من اللازم؛ فقد سمعت أن الموضة تتغيَّر كثيرًا. وسمعت أن عددًا من ألمع الشخصيات قالوا إن العبقرية لم تعد محل ترحيب، خاصة بعد الفضائح الأخيرة ...»

ردت جيهورام: «في الأدب فقط، أما في الموسيقى ...»

قاطعتها ميندام مستطردةً: «مهما قلتِ يا عزيزتي، فلن يقنعني شيءٌ بأن زي ذلك الشخص لم يكن فاضحًا للغاية وغير محتشم.»

حادث بسيط

٣٢

وصل الملاك إلى السياج الشجري المحيط بالحقل القريب من منزل الكاهن وهو لم يزل يفكر. سقطت أشعة الشمس الموشكة على الغروب على كتفَيه، وكست منزل الكاهن بطبقة من الذهب، ونوافذه بوهج كلهيب النار. وقفت الخادمة الصغيرة ليديا عند البوابة تغمرها أشعة الشمس. وقفت تشاهده أمامها، وفجأة رأى فيها الملاك جمالًا لم يره في كثيرات، كما رأى فيها حيوية ودفئًا فوق جمالها.

فتحت له البوابة وتنحَّت جانبًا، رثت لحاله؛ إذ كانت أختها الكبرى معاقة. انحنى احترامًا لها كما كان يفعل مع أي امرأة، واستقر نظره على وجهها للحظةٍ واحدة، كما استقرت عيناها عليه فتحرك فيها شيء لم تفهمه.

ارتبكت حركة الملاك وقال بصوتٍ خفيضٍ حالم: «عيناكِ جميلتان للغاية!»

ردت: «سيدي!» وبدا على ملامح الملاك الارتباك، وواصل المسير في الممر الفاصل بين الورود، في حين وقفت هي ممسكة بالبوابة تتابعه بعينَيها، وعندما أصبح أسفل الشرفة المحاطة بالورود استدار ونظر إليها.

ظلت تنظر إليه للحظة، ثم بحركةٍ غريبة أدارت له ظهرها وأغلقت البوابة، وبدت عيناها معلقتَين بالوادي المؤدي إلى برج الكنيسة.

أصل الأشياء وجوهرها

٣٣

على مائدة العشاء أخبر الملاك الكاهن بمغامرات اليوم العجيبة.

قال الملاك: «الأمر الغريب هو استعداد البشر لإلحاق الألم بغيرهم وحماسهم لذلك؛ فهؤلاء الصبية الذين رجموني هذا الصباح ...»

قاطعه الكاهن: «بدا عليهم الاستمتاع بالأمر، أعرف ذلك.»

قال الملاك: «ومع ذلك لا يحبون الألم.»

قال الكاهن: «لا يحبونه بالطبع.»

قال الملاك: «بعد ذلك رأيت بعض النباتات الجميلة، كان لها أوراقٌ مدبَّبة تمتد اثنتان منها في اتجاه واثنتان في اتجاهٍ آخر، وما إن لمست إحداها حتى شعرت بعدم ارتياح شديد.»

قال الكاهن: «القراص اللاسع!»

قال الملاك: «نوعٌ جديد من الألم، ورأيت نباتًا آخر رأسه كالإكليل وأوراقه كثيرة الزينة، تمتد منه أشواك ...»

قال الكاهن: «نباتٌ شوكي، غالبًا.»

قال الملاك: «وفي حديقتك، هناك نباتٌ جميل ذو رائحةٍ سُكَّرية ...»

قال الكاهن: «الورد الياقوتي، حسبما أتذكر.»

قال الملاك: «وهذه الوردة ذات اللون الزهري التي خرجت من العلبة ...»

قال الكاهن: «خرجت من العلبة؟»

قال الملاك: «بالأمس، التي ارتفعت على الستائر، اللهب!»

قال الكاهن: «تقصد أعواد الثقاب والشمع! نعم.»

قال الملاك: «والحيوانات، صادفت اليوم كلبًا تصرف على نحوٍ كريهٍ للغاية، وهؤلاء الصبية، وطريقة كلام الناس، يبدو على الجميع القلق، والاستعداد لإحداث الألم، يبدو الجميع منهمكين في إحداث الألم ...»

قال الكاهن: «أو في تجنُّبه.» ودفع طعامه بعيدًا وواصل: «بالطبع، القتال في كل مكان، عالم الأحياء كلُّه ميدان معركة، العالم كله. الألم يحركنا، هكذا يبدو الأمر، وقد لاحظتَه منذ اليوم الأول!»

سأل الملاك: «لكن، لماذا يريد كل الأشخاص وكل الأشياء إحداث الألم؟»

فسأله الكاهن: «أوليس هذا هو الحال في أرض الملائكة؟»

أجاب الملاك: «نعم، لماذا يحدث هذا هنا؟»

مسح الكاهن شفتَيه بمنديله ببطء وقال: «هكذا هو الحال هنا، الألم هو وحدة بناء هذه الحياة، أتعلم؟» وتوقف لبرهة ثم واصل: «لا يمكنني تخيُّل العالم بدون الألم، ومع ذلك فعندما كنت تعزف هذا الصباح ...»

وقطع فكرته لحظةً ثم قال: «ولكن هذا العالم مختلف، هذا العالم هو نقيض عالم الملائكة. لقد انصبَّ اهتمام عدد من الناس — وأقصد أشخاصًا يُعدُّون رموزًا دينية بارزة — إلى فكرة عالمية الألم، حتى إنهم يعتقدون أن بعد الموت ستسوء الأمور أكثر للكثيرين منا، أما أنا فأراها نظرةً متطرفة، لكن هذا التساؤل ليس هيِّنًا، ربما يتجاوز قدرة المرء على المناقشة ...»

ومضى الكاهن يتحدَّث بإسهاب دون ترتيبٍ مسبق عن مفهوم «الحاجة»، وأخبر الملاك أن حال الأشياء هكذا لأن هذا ما شاءت الأقدار، وأن المرء مضطر لفعل هذا وذاك، قال الكاهن: «حتى طعامنا.» فردَّ الملاك: «ماذا عنه؟» فردَّ الكاهن: «لا يمكن الحصول عليه بدون إلحاق الألم.»

شحب وجه الملاك بشدة، فامتنع الكاهن عن الاستفاضة في الشرح؛ إذ كان موشكًا على شرح ما كان فخذ الحمَل عليه قبل أن يصبح طعامًا لهما، وساد الصمت لبرهة.

ثم قال الملاك: «بالمناسبة، هل انتُزع مخك مثل عامة الناس؟»

الظهور الأول للملاك

٣٤

عندما تحزم السيدة هامرجالو أمرًا، يجري كل شيء وفقًا لإرادتها، وبرغم امتعاض الكاهن الذي أبداه على استحياء، أنفذت إرادتها وحشدت جمهورًا، سيحضُر الملاك بكمانه في منزل سيدرمورتون قبل نهاية الأسبوع. وبحكمة واستباقٍ مضت تقول: «عبقري اكتشفه الكاهن.» لتلقي باللائمة على الكاهن إن لم تجرِ الأمور على ما يرام. أخذت تردد أن الكاهن يتحاكى ببراعة الملاك في عزف الكمان. لطالما أضمرت رغبة في لعب دور راعية المغمورين من أصحاب المواهب، إلا أن أحدًا ممن رعتهم لم يُثبت موهبةً حقيقية عند الاختبار حتى ذلك الحين.

قالت: «سيأتي ذلك عليه بفائدةٍ كبيرة، شعره طويل بالفعل، وبلونه الفريد ذاك سيبدو بمظهرٍ جميل جدًّا على المسرح، وارتداؤه لملابس الكاهن التي لا تلائم مقاسه يجعله يبدو كعازفٍ بيانو مواكب للموضة بالفعل، كما ستكون فضيحة نسبه التي ستتناقلها الألسنة سرًّا عامل جذب إضافيًّا عندما يصل صيته إلى لندن.»

أما الكاهن، فقد اعتملت في صدره أسوأ الأحاسيس، وأخذت تتفاقم كلما اقترب اليوم المحدد. أمضى ساعات في شرح الموقف للملاك، وساعات يتخيل ما قد يظنه الناس، وساعات أثقل في تصور سلوك الملاك. لم يسبق للكاهن حتى ذلك الحين أن عزف إلا إشباعًا لهوايته، وظل الكاهن يفزعه عن العزف بين الفينة والأخرى ليخبره بما يخطر بباله من ملاحظات عن مقتضيات اللباقة، من قبيل: «المكان الذي ستضع فيه قبعتك مهم للغاية، لا تضعها على كرسي أبدًا، أمسكها حتى يصلك شايُك، ثم ضعها في مكان مناسب.» مرت الرحلة

إلى منزل سيدرمورتون بلا منغصات، لكن عندما أتت لحظة التقديم داهم الكاهن تخوفٌ شديد عندما أدرك أنه نسي أن يشرح للملاك كيف يكون التقديم والتعارف، وكان الملاك مستمتعًا في سذاجةٍ ظاهرة، لكن لم يحدث أي مكروه.

قال السيد راثبون-سلايتر الشديد الاهتمام بالأزياء: «فتًى غريب الهيئة! ينقصه الهندام والتهذيب معًا، ابتسم ابتسامةً عريضة عندما رآني أصافح البعض، أعتقد أني كنت أصافح بلياقة كافية.»

وحدث أمرٌ قليل الأهمية: عندما كانت السيدة هامرجالو ترحب بالملاك نظرت إليه بنظارتها، فأفزعه حجم عينَيها كما بدا في عدستَي النظارة، ولم يحسن إخفاء مفاجأته، بل حاول أن ينظر إلى عينَيها من وراء الإطار، لكن الكاهن كان قد حذره من بوق الأذن.

أثار عدم قدرة الملاك على الجلوس على أي شيء إلا كرسي الموسيقى اهتمام السيدات، لكن لم تعلق أيٌّ منهن على ذلك، بل اعتبرنه تكلفًا من عازفٍ مبتدئ. ارتبك في حمل كوب الشاي وأسقط الكثير من الفتات أثناء تناول الكعك (إذ لم يزل حديث العهد بالأكل)، وجلس واضعًا ساقًا على ساق، وأربكته القبعة بعد أن حاولت عيناه ملاقاة عينَي الكاهن فلم يكن له ذلك. وحاولت كبرى سيدات آل بابافير التحدث معه عن المنتجعات العالمية والسجائر، فرأت محدودية ذكائه.

فوجئ الملاك عندما أُحضر حامل النوتة الموسيقية وعدة نوتات، واضطرب في أول الأمر عندما رأى السيدة هامرجالو جالسة تميل رأسها وتراقبه بعينَيها اللتين بدتا أكبر من حجمهما بفعل النظَّارة المكبِّرة ذات الإطار المكسوِّ بالذهب.

قصدته السيدة جيهورام قبل أن يبدأ العزف وسألته عن اسم المقطوعة الساحرة التي كان يعزفها ظهيرة ذلك اليوم، فأجابها الملاك بأن ليس لها اسم، فوافقته السيدة جيهورام في أن المقطوعات الموسيقية لا ينبغي أن تحمل أسماء أبدًا، وعندما أخبرها بأنه عزفها على السليقة، قالت إنه لا بد أن يكون عبقريًّا حقًّا، ورنَت إليه (بإعجاب وافتتان واضحَين). في هذه الأثناء كان خوري إبينج هانجر يشاهده في غيرة (وكان هو نفسه عازف بيانو معتادًا على الحديث عن الألوان والموسيقى بشيء من الاستعلاء العرقي).

وجد الكاهن نفسه مضطرًّا للجلوس بجانب السيدة هامرجالو، لكن عينَيه ظلتا معلقتَين بالملاك بينما كانت تخبره هي بتفاصيلَ من وحي خيالها عن الدخل الذي يجنيه عازفو الكمان. كانت قد انزعجت بعض الشيء مما بدر من الملاك عندما رأى عينَيها في عدستَي النظارة، لكنها اعتبرته حادثًا غريبًا لم يتجاوز فيه الملاك حدود المسموح.

(أما السيدة ميندام وابنتاها، فلم يقبلْنَ الدعوة، رغم علمهن بأن ذلك قد يثير امتعاض السيدة هامرجالو؛ فقد فكرْنَ في الأبرشية، كما فوجئت السيدة ميندام واستاءت من تشجيع السيدة هامرجالو لمثل ذلك الشخص.)

فلتتخيل المشهد؛ الصالون الأخضر في حديقة سيدرمورتون، وملاكٌ متخفٍّ في ملابسَ كهنوتية يحمل في يده كمانًا، ويقف بجوار البيانو الكبير، وحشد من المتابعين الهادئين الوقورين المهندمين في القاعة. وثرثرة في انتظار البدء، وأجزاء من محادثات متداخلة.

قالت كبرى سيدات آل بابافير للسيدة بربرايت: «إنه منتحل، أليس هذا غريبًا ومثيرًا؟! تقول جيسيكا جيهورام إنها رأتْه في فيينا، لكنها لا تتذكر اسمه، الكاهن يعرف كل شيء عنه، لكنه قريب للغاية من ...»

وقالت السيدة بربرايت: «الكاهن المسكين يبدو متوترًا ومنزعجًا، كنت ألاحظ ذلك عليه من قبلُ كلما جلس بجوار السيدة هامرجالو، إنها لا تمنحه التوقير المستحق للإكليروس، بل تواصل الـ...»

قالت كبرى سيدات آل بابافير: «رابطة عنقه مائلة، وشعره لا يبدو أنه قد صففه اليوم.»

وقال جورج هارينجاي وهو يجلس مع صُغرى سيدات آل بربرايت: «يبدو غريبًا، متصنِّعًا، لا بأس بأن يظل في غرفة استقبال، لكني أفضِّل أن يكون مظهر الرجل ذكوريًّا، ومظهر المرأة أنثويًّا، ما رأيك؟»

ردت صُغرى سيدات آل بربرايت: «أوافقك الرأي.»

في حين كانت السيدة هامرجالو تواصل: «جنيهات فوق جنيهات، سمعت أن بعضهم يمتلكون مؤسسات فخمة، أمر لا يصدق ...»

قالت السيدة جيهورام: «أحب الموسيقى يا سيد آنجيل، بل أعشقها، تُحرك بداخلي شيئًا ما، لا يمكنني وصف تأثيرها عليَّ، لا أتذكر من الذي قال تلك العبارة البليغة: الحياة بلا موسيقى وحشية، والموسيقى بلا حياة هي ... لا أتذكر، أتتذكر أنت؟ الحياة بلا موسيقى هي ... أكان راسكين من قال ذلك؟»

قال الملاك: «أعتذر عن جهلي بذلك؛ إذ لم أقرأ إلا القليل من الكتب.»

قالت السيدة جيهورام: «يا للطفك! ليتني لا أقرأ، أتفهم موقفك تمامًا، لو كنتُ مكانك لما قرأتُ كثيرًا، فقط نحن النساء المسكينات من نـ... أعتقد أننا نفتقر إلى الإبداع، والمرء في هذه الأرجاء يضطر إلى أغرب الأشياء ...»

قال جورج هارينجاي: «إنه وسيم للغاية حقًّا، لكن القوة هي المقياس الحقيقي للرجولة، أليس كذلك؟»

قالت صُغرى سيدات آل بربرايت: «أوافقك الرأي.»

قال جورج: «الرجل المخنث هو من يجعل المرأة ذكورية، إذا كان شعر الرجل مصدر فخره فما المتوقع من المرأة؟ عندما يختال الرجال بجمالهم ...»

قالت الآنسة بيربرايت الصغرى: «أوه جورج! أنت انتقاديٌّ على نحوٍ مريع اليوم. إنني على يقين من أن هذا ليس احتيالًا.»

قال الكاهن: «أنا حقًّا لست وصيًّا عليه يا سيدة هامرجالو، لطفٌ منكِ بالتأكيد أن تولي اهتمامكِ ...»

وقالت السيدة جيهورام باستمتاع: «هل سترتجل حقًّا؟»

قال خوري إبينج هانجر: «صه!»

بدأ الملاك العزف، موجهًا نظره إلى الأمام مباشرة، وأخذ يتخيل ما في أرض الملائكة من أشياءَ رائعة، ثم طغى الحزن الذي كان قد بدأ يشعر به عليه بدلًا من روائع أرض الملائكة، فانعكس التحول في عزفه. كان ينسي من كانوا يحيطون به تارة فيصير عزفه فريدًا ورائقًا، ويتذكرهم تارة فيُسمع في موسيقاه نشازًا غريبًا. بدا على السيدة جيهورام اندماج كامل مع ما كانت تسمع (رغم غرابة الموسيقى في بعض الأحيان)، وحاولت أن تلتقي عيناها بعينيه. كان وجهه يفصح عن مشاعره بوضوح، وتعبيراته في غاية الرقة، وكانت السيدة جيهورام تجيد الحكم على الأمور، وفي هذه الأثناء بدا على جورج هارينجاي الملل، حتى خلعت السيدة بربرايت الصغرى التي كانت تعشقه حذاءها الصغير لتلمس حذاءه بقدمها، فالتفت إليها ونظر إلى عينَيها الرقيقتَين اللتين تنضحان غنجًا وأنوثة، فذهب عنه الملل. وجلست كُبرى سيدات آل بابافير والسيدة بربرابت ساكنتَين رزينتَين لما يقرب من أربع دقائق.

ثم همست كبرى سيدات آل بابافير: «تمتعني موسيقى الكمان بشدة دائمًا.» وأجابتها السيدة بربرايت: «لا يوجد لدينا من الموسيقى الجميلة هنا إلا القليل.» قالت السيدة بابافير: «عزفه جميل جدًّا.» ثم قالت السيدة بربرايت: «لمساته للأوتار رقيقة!» ثم قالت السيدة بابافير: «هل يهتم ويلي بدروسه؟» واستفاضتا في الحديث همسًا.

جلس خوري إبينج هانجر في مرمى نظر الجميع (شعر بذلك)، وطوَّق إحدى أذنَيه بيده، في حين كانت عيناه معلقتَين بقاعدة تقوم عليها مزهرية من نوع سيرفيز. وظل يحرك

فمه بإشارات نقديةٍ سخية لكل من أراد الاستفادة برأيه. كانت ملامحه تشي بانهماكه في التقييم والحُكم، وظلت تتغير لتبدي استياءً تارة وتقديرًا متحفظًا تارةً أخرى. في حين تراجع الكاهن في كرسيِّه وحدق في وجه الملاك، وسرعان ما هام في حلمٍ جميل. أما السيدة هامرجالو، فظلت تُحدِث حركاتٍ سريعةً مفاجأة برأسها واهتزازاتٍ طفيفةً مستمرة وهي تنصت إلى عزف الملاك وتحاول تقييمه. وحدق السيد راثبون سلايتر في قبعته ساكنًا وبدا عليه كربٌ شديد، أما قرينته فقد انشغلت بالسيدة جيهورام. وامتلأ الجو بالموسيقى ليستمتع بها كل من كانت له أذنان.

همست السيدة هامرجالو بصوتٍ أجشَّ: «مؤثر إلى حدٍّ ما.» ووكزت الكاهن فجأة بين ضلوعه فأفزعته من أحلامه فجأة؛ فأجفل وأطلق صيحة استفهام، فقال خوري إبينج هانجر: «صه!» ونظر الجميع إلى الكاهن هيليار مستغربًا تصرُّفه غير اللائق. قالت كُبرى سيدات آل بابافير: «غريب أن يصدر ذلك من الكاهن، لم أتصور أن يفعل ذلك!» وواصل الملاك العزف.

أخذ خوري إبينج هانجر يصدر حركاتٍ لا إرادية بسبابته، ومع استمرار العزف استغرق السيد راثبون سلايتر فيه حتى شعر بخدرٍ في كل جسمه من فرط الاستمتاع، ثم عدَّل قبعته وغير اتجاه نظره في سكون، وعاد الكاهن إلى الهيام في أرض الأحلام مجددًا بعد الفاصل المؤقت من الاضطراب، في حين تململت السيدة هامرجالو كثيرًا حتى أحدث مقعدها أزيزًا توقف بعد فترة، ثم صاحت: «رائع!» على الرغم من أنها لم تكن قد سمعت لحنًا منتظمًا من قبلُ، وطفقت تصفِّق بيدَيها، فانتشرَت عدوى التصفيق بين الجميع عدا السيد راثبون سلايتر الذي أخذ ينقر على حافة قبعته بدلًا من التصفيق. وصفق خوري إبينج هانجر معلنًا حكمه على ما سمع.

كانت السيدة بربرايت تُحدِّث كبرى سيدات آل بابافير في موضوعٍ آخر (وهي تصفِّق بحرارة)، قالت: «قلت لها: إن لم تطهي الطعام على طريقتي فلا حاجة لنا بك ... (هذه الموسيقى ممتعة ومبهجة.)»

قالت كبرى سيدات آل بابافير: «(حقًّا، تمتعني الموسيقى بشدة دائمًا) ... وهل تحسنت بعد ذلك؟»

قالت السيدة بربرايت: «لم تتحسن على الإطلاق.»

أفاق الكاهن من أحلامه مرةً أخرى ونظر حوله في الصالون يتحقق مما إذا كان الآخرون أيضًا قد رأوا تلك الخيالات التي تمثَّلت له، لا بد أنهم جميعًا رأوها ولكنهم أظهروا

سيطرةً بالغة على مشاعرهم، ليس من المعقول ألا تؤثر موسيقى كهذه عليهم. قالت السيدة هامرجالو للكاهن فجأة: «تنقصه بعض الكياسة، لا ينحني لتحية الجمهور ولا يبتسم، ينبغي أن يتعلم هذه الأمور الصغيرة، كل مؤدٍّ ناجح لديه قدر من الكياسة، ولو اختلف هذا القدر.»

حدقت السيدة جيهورام فيه بعينَين ملؤهما الافتتان: «هل ارتجلتَ هذا اللحن بنفسك حقًّا؟ لقد كان بالغ الروعة! وهذا أقل ما يُقال عنه.»

قال خوري إبينج هانجر للسيد راثبون سلايتر: «به بعض الشبه بعزف الهواة، موهبةٌ فذة بلا شك، لكن ينقصها التدريب المستمر. لاحظت هنة أو هنتَين، أودُّ محادثته بشأنهما.»

قال السيد راثبون سلايتر: «بنطاله يبدو كالأكوردیون، ينبغي أن يعلم ذلك؛ فمظهره ليس ملائمًا بما يكفي.»

قالت السيدة هامرجالو: «هل يمكنك تقليد الأصوات يا سيد آنجيل؟»

فأيدتها السيدة جيهورام: «نعم، فلتقلد بعض الأصوات، أحب التقليد كثيرًا.»

تحدث خوري إبينج هانجر وهو يحرك يدَيه الموسيقيتَين الطويلتَين مخاطبًا كاهن سيدرمورتون: «كان عزفه ساحرًا، أظنني سمعته من قبلُ، لا أتذكر أين، لا شك في عبقريته الموسيقية، لكنه ينشز أحيانًا، يعوزه بعض الإتقان وسنوات من التدريب.»

وقال جورج هارينجاي: «لا تعجبني هذه المقطوعات الموسيقية المعقدة، يؤسفني أن ذوقي أبسط من ذلك، أشعر أنها تفتقد الاتساق في اللحن، لا يوجد ما هو أفضل من الموسيقى البسيطة. اللحن المتسق والبساطة هما المطلوبان في عصرنا هذا. هناك مبالغة في التعقيد وميل إلى اللامألوف. أما أنا فأُفضِّل الأفكار البسيطة، ما رأيك؟»

قالت صُغرى سيدات آل بربرايت: «حقًّا، أوافقك الرأي.»

وفي الطرف الآخر من القاعة قالت السيدة بربرايت: «أخبريني يا إيمي، هل تتحدثين مع جورج كعادتكما؟»

فقالت السيدة بربرايت الصغرى: «كالمعتاد يا أمي!» والتفتت تفتش عن السيدة بابافير مبتسمة، ثم التفتت مجددًا حتى لا يفوتها ما يقول جورج.

قالت السيدة هامرجالو لخوري إبينج هانجر الذي بدت عليه كآبةٌ شديدة: «أتساءل إن كان من الممكن أن تؤدي أنت والسيد آنجيل معزوفةً مشتركة.»

انفرجت أسارير خوري إبينج هانجر وقال: «يسعدني ذلك بكل تأكيد.»

وقال الملاك: «معزوفةٌ مشتركة؟! نحن الاثنان؟ إذن فهو أيضًا يعزف، فهمت ذلك، الكاهن أخبرني.»

قاطعه الكاهن: «السيد ويلمردينجز عازف بيانو ذائع الصيت.»

كانت السيدة جيهورام تمقت ويلمردينجز، فقالت: «ماذا عن التقليد؟»

قال الملاك: «تقليد؟!»

قال السيد راثبون سلايتر: «نعم، كخنخنة الخنزير وصياح الديك وما إلى ذلك.» وأضاف بصوتٍ خفيض: «هذا هو أكثر ما يمكن أن يصدر عن الكمان في رأيي.»

قال الملاك: «لم أفهم حقًّا، صياح الخنزير؟!»

قالت السيدة جيهورام: «أنت لا تهوى التقليد، ولا أنا، أتفهم رفضك، أعتقد أن التقليد يحطُّ من قدر ...»

قالت السيدة هامرجالو: «قد يغير السيد آنجيل رأيه فيما بعدُ.» وكانت قبل قولها ذلك قد سمعت من السيدة بربرايت تفسيرًا ما إن سمعته حتى ارتابت في بوق الأذن الذي تسمع به؛ إذ لم تعتد أن تطلب شيئًا من قبيل التقليد فلا تُلبَّى رغبتها.

جلس السيد ويلمردينجز إلى البيانو، وكان في الاستراحة قد طالع بعض النوتات الموسيقية، التفت إلى الملاك وقال: «ما رأيك في معزوفة سبور؟ أنت تعرفها لا شك، صحيح؟» فبدت الحيرة على الملاك.

ففتح النوتة يعرضها عليه.

قال الملاك: «يا لغرابة هذا الكتاب! ماذا تعني كل هذه النقاط العجيبة؟» (فسرى في عروق الكاهن قلقٌ شديد.)

قال الخوري: «أي نقاط؟»

فأشار الملاك إلى النوتة وقال: «هذه النقاط!» مثبتًا جهله بماهية النوتة.

قال الخوري: «يا للعجب!»

وعم صوتٌ مفاجئٌ مؤقت يعني الكثير في مثل هذه الفعاليات الاجتماعية.

التفتت كبرى سيدات آل بابافير إلى الكاهن وقالت: «ألا يعزف السيد آنجيل من النوتة الموسيقية العادية؟»

تمالك الكاهن نفسه بعد القلق الذي داهمه وقال: «لم أسمع ... حقًّا لم أرَ قط ...»

شعر الملاك باحتقان الموقف، ولكنه لم يفهم السبب، لاحظ نظرات الريبة والاستهجان على الوجوه التي تنظر إليه، وسمع السيدة بربرايت تقول: «مستحيل! بعد هذه الموسيقى الساحرة.» وتوجهت كبرى سيدات آل بابافير إلى السيدة هامرجالو على الفور وبدأت تشرح لها في بوق الأذن كيف رفض السيد آنجيل العزف مع السيد ويلمردينجز متعللًا بجهله بالنوتة الموسيقية.

قالت السيدة هامرجالو في صدمةٍ شديدة: «لا يمكنه العزف من النوتة الموسيقية؟! هذا محض هراء!»

قال الملاك في ارتباك: «نوتة؟! أهذه هي النوتة الموسيقية؟»

قال السيد راثبون سلايتر لجورج هارينجاي: «إنه يتمادى في الهزل، كل ذلك ليتجنَّب العزف مع ويلمردينجز.»

عمَّ الصمت والترقب، وأدرك الملاك أنه من المفترض في هذا الموقف أن يخجل من نفسه، بل شعر بالفعل بخجل من نفسه.

تقدمت السيدة هامرجالو ورأسها مرفوع في خيلاء وتحدثت بسخط تعمدت إظهاره بوضوح قائلة: «إن لم تستطع العزف مع السيد ويلمردينجز، فلن أطلبك للعزف مرةً أخرى.» قالت ذلك بلهجة إنذار، وارتعشت نظارتها في يدها، وكان الملاك قد فهم ما يكفي عن عالم البشر ليدرك أنه في ورطة.

نادت لوسي راتشاك الصغيرة من الركن البعيد: «ما الخطب؟»

رد تومي راثبون سلايتر: «رفض أن يعزف مع ويلمردينجز العجوز، يا للعجب! لقد احمر وجه العجوز غضبًا، فهي توقِّر ويلمردينجز كثيرًا.»

قالت السيدة هامرجالو: «هلا أمتعتنا بمعزوفة شوبان البولندية الجميلة يا سيد ويلمردينجز؟» فصمت الجميع؛ إذ كان لغضبة السيدة هامرجالو مهابةٌ تدفع الجميع إلى الصمت والترقُّب كما لو أن زلزالًا أوشك أن يهزَّ الأرض، أو كسوفًا أوشك أن يحجبَ الشمس. ورأى السيد ويلمردينجز أنه لو بدأ العزف على الفور لكان ذلك معروفًا (يسديه للجميع، ويزيد من موثوقيته لديهم)، وفعل ذلك بالفعل.

قال جورج هارينجاي: «إذا ادعى رجلٌ أنه ممارس لأحد الفنون، فأضعف الإيمان أن يدرس أسسه، ما رأيك؟»

قالت صغرى آل بربرايت: «صحيح، هذا ما أراه.»

شعر الكاهن أن السماء قد انهارت فوق رأسه، فجلس في كرسيه مخذولًا محطَّمًا، وجلست السيدة هامرجالو بجواره وهي لا تكاد تراه. كانت أنفاسها تتسابق رغم الهدوء الذي بدا على وجهها. جلس الجميع. هل كان الملاك بالغ الجهل أم بالغ الوقاحة؟ لم يكن لدى الملاك درايةٌ كافية بجريمته النكراء، لكنه أدرك أنه لم يعد محط الاهتمام وسط الجمع. رأى في عين الكاهن توبيخًا يخالطه اليأس. انسلَّ إلى النافذة في فترة الاستراحة وجلس على الكرسي الثُّماني الموريِّ الطراز بجوار السيدة جيهورام. وعندئذٍ قدَّر عاليًا قيمة الابتسامة الحانية التي ارتسمت على وجه السيدة جيهورام، ووضع الكمان على إفريز النافذة.

٣٥

جلست السيدة جيهورام والملاك (مكانهما) عند النافذة، وأخذ السيد ويلمردينجز يعزف.

قالت السيدة جيهورام: «كنت أود منذ وقتٍ طويل أن أحادثك في هدوء، لأخبرك بمدى انبهاري بعزفك الجميل.»

رد الملاك: «يسعدني أنه أسعدك.»

قالت السيدة جيهورام: «لم يسعدني فحسب، بل هزني حتى الأعماق، الآخرون لم يفهموا، وسعدت بأنك لم تعزف معه.»

نظر الملاك إلى ويلمردنجز وهو يعزف على نحوٍ ميكانيكي، وشعر هو أيضًا بالسعادة لكن لم يقل الملاك شيئًا (المعزوفات المشتركة لدى الملائكة شبيهة بالمحادثة بين كمانَين).

قالت السيدة جيهورام: «أهيم عشقًا بالموسيقى، لا أعرف شيئًا عن آلية عزفها، لكنها تبثُّ في النفس شيئًا أشبه بالشوق أو التمني.»

حدَّق الملاك في وجهها، وتلاقت العيون.

قالت: «أرى أنك تفهم ذلك.» كان فتًى لطيفًا، عواطفه جياشة ربما، وعيناه جميلتان.

انقطع الحديث، وانصرف الانتباه لوهلة لمعزوفة شوبان رقم ٤٠ التي كانت تُعزَف بتمكُّنٍ بالغ.

لم يزل وجه السيدة جيهورام جميلًا حتى عندما غطَّى الظل أجزاءً منه وطوَّق النور شعرها الذهبي، عندئذٍ خطرت ببال الملاك فكرةٌ غريبة. أيد مظهرها حينئذٍ ما كان يدور بخلده، تخيل شيئًا ديدنه البريق الدائم الجميل وقع في الأسر، ولُوِّثت طبيعته، وأُكسب شيئًا من الغلظة، ثم ووري بمظهرٍ خارجي مخالف لأصله.

قال الملاك بصوتٍ خفيض: «هل ... هل انفصلتِ عن عالمك؟»

ردت: «وأنت أيضًا؟»

قال الملاك يقصد عالم البشر كله: «هذا كله باردٌ جدًّا، وقاسٍ جدًّا!»

فردت تقصد منزل سيدرمورتون: «أنا أيضًا أشعر بذلك.»

وتوقفت للحظة مُظهرةً التعاطف ثم واصلت: «هناك أشخاص لا يمكنهم العيش بدون تعاطف، وأوقات يشعر فيها المرء بالوحدة في هذا العالم، يشعر بأنه في معركة يحارب فيها كل شيء، ومع ذلك يضحك، ويغازل ويخفي كل هذا الألم.»

أكمل الملاك جملتها وهو يرمقها بنظرةٍ حانية: «ويتمنى.»

شعرت السيدة جيهورام (التي تتفهم عبارات الغزل وتقدرها) أن جوهر الملاك لا يناقض مظهره وأنه يهيم بحبها (بلا شك)، قالت: «هل تبحث عن التعاطف؟ أم وجدته بالفعل؟»

رد الملاك بهدوءٍ شديد وهو يميل إلى الأمام: «أعتقد أني وجدته بالفعل.»

استمرت معزوفة شوبان رقم ٤٠، وتواصل تهامس السيدة بابافير والسيدة بربرايت، ووقفت السيدة هامرجالو (رافعة كأسها) ترمق الملاك بنظراتٍ عدائية، في حين تبادلت السيدة جيهورام مع الملاك نظراتٍ عميقة ذات معنًى.

قال الملاك: «اسمها ديليا، إنها ...» (وندت عن السيدة جيهورام حركة.)

قالت السيدة جيهورام بحدة وقد أدركت أن هناك لبسًا مؤسفًا: «ديليا! اسمٌ رائع، أليست هي العاملة في منزل الكاهن؟»

انتهت المعزوفة بنغمةٍ مؤثرة، وفوجئ الملاك بتغير ملامح السيدة جيهورام.

قالت مستدركة: «أما أنا فلم أجده بعد!»

وخاطبت نفسها: «أتستأمنني أنا على سر هيامك بالخادمة؟ حقًّا يا سيد آنجيل؟ يبدو أن جعبتك لا تعدم الجديد.»

ثم انقطع حديثهما فجأة.

٣٦

هذا القسم أقصر أقسام الكتاب (إن لم تخني الذاكرة).

ولكن فداحة محتواه تستلزم فصله عن باقي الأقسام.

لا بد للقارئ من أن يفهم أن الكاهن قد بذل قصارى جهده لإكساب الملاك الصفات المميزة للرجل اللبق، فكان يقول له: «لا تسمح لسيدة بأن تحمل شيئًا، بل استأذنها واحمله أنت عنها، وقفْ لأي سيدة احترامًا لها، وافتح لها الباب.» وما إلى ذلك (كل الرجال الذين لهم أخوات يكبرْنهم يعرفون هذه القواعد).

كان الملاك (الذي أخذ عن السيدة هامرجالو قدح الشاي) هبَّ فجأةً (تاركًا السيدة جيهورام عند إفريز النافذة) بعد أن قال لها باقتضاب: «معذرةً!» وتقدَّم ببراعةٍ لافتة فأخذ عن خادمة السيدة هامرجالو الجميلة صينية الشاي وأسرع أمامها بإصرارٍ مُفرِط، فقام الكاهن وصاح بكلامٍ لم يُسمَع جيدًا.

٣٧

قطع السيد راثبون سلايتر صمتًا مطبقًا بقوله: «إنه ثمل! لا بد أن هذا ما دهاه.»

وانفجرت السيدة جيهورام بضحكٍ هستيري.

ووقف الكاهن يحدِّق فيه بلا حراك، وخاطب نفسه قائلًا نادمًا: «يا للهول! نسيت أن أشرح له الخدم ووظيفتهم! ظننته يفهم ذلك.»

قالت السيدة هامرجالو وقد بدا عليها كبح غضبٍ عظيم وترددت أنفاسها بسرعة: «حقًّا يا سيد هيليار؟! حقًّا؟ العبقري الذي جلبته شديد التبجُّح، لا يسعني الآن إلا أن أطلب منك اصطحابه والعودة إلى المنزل.»

حال لون وجه الكاهن من الحرج، وملأ اليأس عينَيه، واستقرت رابطة عنقه تحت أذنه اليسرى، خرج إلى الرواق وقاطع الحوار الذي دار فيه بين الخادمة المضطربة والملاك الحسن النية السيئ التصرف.

وقال وهو يغالب طوفانًا من المشاعر يعتمل في داخله: «تعال، لنذهب، لقد لحق بي عارٌ لن يزول أبدًا.»

حدق فيه الملاك لثانية ثم فعل ما أمر صاغرًا يشعر أن قوًى يجهل كنهها ويشعر بفظاعتها تحيط به.

وهكذا لم تكد سيرته تبدأ حتى انطوت.

وفي حوار (يتطاير حوله شرر الغضب) تلا ذلك وتولت فيه السيدة هامرجالو دور القيادة قالت: «أشعر بالإهانة، لقد أكد لي الكاهن أنه عازفٌ بارع، لم أكن أتخيل أن ...»

قال السيد راثبون سلايتر: «كان ثملًا، بدا ذلك جليًّا فيه ارتباكه وهو يحتسي شايه.»

قالت السيدة ميرجل: «مهزلة!»

كررت السيدة هامرجالو: «أكد لي الكاهن، قال لي: «الرجل الذي يقيم معي هو عبقريةٌ موسيقية.» هذه كلماته بالضبط.»

قال تومي راثبون سلايتر: «على أي حال، لا بد أنه يدرك هذا السخط العارم عليه الآن.»

قالت السيدة جيهورام: «كنت أحاول تهدئته وملاطفته، هل تعلمون ما قال لي هناك؟»

قال السيد ويلمردنجز: «المقطوعة التي عزفها، أعترف أني لم أرد مواجهته، لكن في الحقيقة كانت تتواصل فحسب بلا تأثير.»

قال جورج هارينجاي: «كان يعبث بالكمان فحسب، صحيح؟ اعتقدت أني أنا فقط من لم يتذوَّقْها؛ فالكثير من موسيقاك الراقية هي بالنسبة إليَّ ...»

قالت صغرى آل بربرايت: «جورج!»

قال السيد راثبون سلايتر: «كان الكاهن مضطربًا قليلًا كذلك، كما بدا من رابطة عنقه، أرأيتم كيف كانت؟ وكيف أثار ضجة حول ذلك الفذ الذي أتى به؟»

قالت كبرى آل بابافير: «الحذر والاحتياط واجبان.»

قالت السيدة جيهورام: «قال لي إنه يهيم حبًّا بخادمة الكاهن! كدت أضحك أمامه مباشرة.»

قالت السيدة راثبون سلايتر في حزم: «كان على الكاهن ألَّا يُحضره إلى هنا أبدًا.»

مشكلة السلك الشائك

٣٨

وهكذا انتهى الظهور الأول والأخير للملاك في المجتمع نهايةً مخزية، وعاد مع الكاهن إلى المنزل يبدو عليهما الإحباط والكآبة وهما يسيران بملابسهما السوداء تحت أشعة الشمس الساطعة. تألم الملاك من أعماقه لألم الكاهن الذي مضى رث الهيئة ينطق بعباراتٍ مبعثرةٍ محملة بالندم والتخوف تارةً، وبتوضيحات عن قواعد اللباقة تارةً، وأخذ يردد: «لا يفهمون، لا بد أنهم جميعًا في غضبٍ عارم، لا أعرف ماذا أقول لهم، هذا كله مُربِك جدًّا ومحير جدًّا.» ولما وصلا إلى بوابة المنزل التي لفت جمال ديليا وهي واقفة عندها انتباه الملاك للمرة الأولى، وجدا هوروكس، شرطي القرية في انتظارهما يحمل في يده لفةً صغيرة من السلك الشائك.

قال هوروكس: «طاب مساؤك سيدي.»

وأضاف بنبرة غير مفهومة: «هل يمكنني محادثتك لدقيقة سيدي؟»

قال الكاهن: «بكل تأكيد.» وواصل الملاك مسيره نحو المنزل متفكرًا، وصادف ديليا في منطقة الاستقبال فتفحصها عن كثب يحاول التعرف على الاختلافات بين الخدم وسيدات المجتمع.

قال هوروكس: «معذرة سيدي، هناك متاعب في الأفق بشأن ذلك المعاق الذي يمكث هنا معك.»

قال الكاهن: «يا للهول! ما الخطب؟!»

رد هوروكس: «السيد جون جوتش، إنه غاضب للغاية، كلامه ... رأيت أن عليَّ إخبارك سيدي. إنه مُصرٌّ على التقدم بشكوى بسبب ذلك السلك الشائك سيدي، مُصرٌّ.»

قال الكاهن: «السيد جون جوتش؟ سلك شائك؟ لا أفهم.»

رد هوروكس: «طلب مني أن أعرف من الفاعل، وبالطبع اضطررت إلى أداء واجبي يا سيدي، ولو كان مزعجًا.»

قال الكاهن: «أي سلك شائك؟ وأي واجب؟ لا أفهمك يا هوروكس.»

قال هوروكس: «يؤسفني القول إنه لا جدوى من إنكار الأدلة سيدي، فقد أجريت تحرياتٍ دقيقة.» ثم بدأ الشرطي يقص على الكاهن واقعةً صادمةً جديدة بطلها الملاك الزائر.

لكننا لسنا مضطرين لسرد القصة ولا الاعتراف الذي سيعقبها بالتفصيل (من جانبي أعتبر إطالة الحوار من أشد الأمور رتابة). غاية القول أن ما جرى جعل الكاهن يغير فكرته عن تلك الشخصية الملائكية، وأعطاه لمحة عن السخط الملائكي؛ ففي زقاق وارف الظلال تنتثر في أرجائه بقع من ضوء تركتها أشعة الشمس التي تسلَّلت من ثنايا أشجاره، ويحفُّه من الجانبين سياجان شجريان ينتشر فيهما زهر العسل ونبات البيقة، كانت فتاةٌ صغيرة تجمع الورود غافلةً عن السلك الشائك الذي يعزل صاحب الحيثية السيد جون جوتش عن الرعاع وأسافل العامة. وفجأة جُرحت يدها، فأطلقَت صرخةً مريرة، سمعها الملاك فعطف عليها وهُرع لمساعدتها وتهدئة روعها، وسألها عمَّا جرى، فأخبرته بين دموعها، ثم أحسَّ بشيءٍ جديد لم يعهده من قبلُ؛ الغضب. فانهال على السلك الشائك بضراوة يقطعه ويتلفه. لم يكن وراء تصرُّفه ذلك رغبةٌ في إلحاق الأذى بشخص السيد جون جوتش، بل ظن ذلك السلك الشائك نباتًا ضارًّا قبيحًا امتد بين النباتات الأخرى كالآفة. وعندما فسر الملاك الأمر للكاهن فيما بعدُ تكوَّنت لديه صورة يقف فيها الملاك وحده وتظهر حوله مظاهر الدمار الذي أحدثه وهو يرتعش مندهشًا من القوة المفاجئة التي انبعثت من داخله فجعلته يعيث في السلك الشائك تقطيعًا وتخريبًا، ويهوله منظر الدم القرمزي المنسال على أصابعه.

عندما شرح الكاهن للملاك طبيعة السلك الشائك وأنه مصنوع لغرضٍ محدَّد قال له الملاك: «هذا أكثر فظاعة، لو كنت قد رأيت الرجل الذي وضع ذلك الشيء القاسي السخيف هناك ليؤذي به الأطفال الصغار، لَحاولتُ إلحاق الألم به على الأغلب، لم أشعر بما شعرت به حينها من قبلُ، لقد لوَّثْتني شرور هذا العالم وانطبعت عليَّ.»

وواصل: «الأدهى أن يحدوَ الحُمق بكم معشر البشر إلى الاجتماع لسنِّ قانون يسمح لرجل منكم بشيءٍ شرير كهذا، أعلم أنك ستقول إن هذا ما يتعين أن يكون الأمر عليه لسبب لا علم لي به، لكن هذا يزيدني غضبًا، لماذا لا ترون الأفعال في صورتها المجردة؟»

هذا ما جرى، وعلم به الكاهن تدريجيًّا؛ أخبره هوروكس بخطوطه العريضة أولًا، ثم أضفى الملاك إلى الحكاية لونًا ومشاعر، حدث ذلك في اليوم السابق ليوم الحفل الموسيقي في منزل سيدرمورتون.

سأل الكاهن: «هل أخبرت السيد جون بالفاعل؟ وهل أنت متأكد مما أخبرتني به؟»

رد هوروكس: «متأكد تمامًا يا سيدي، لا مجال للشك، لقد كان ذلك الفتى الذي يمكث عندك يا سيدي، لم أخبر السيد جون بعدُ، لكن عليَّ إخباره هذا المساء، ولا أقصد الإساءة لك سيدي، أتمنى أن تعرف ذلك، كنت أؤدي واجبي، كما أن ...»

قاطعه الكاهن بسرعة: «إنه واجبك بالتأكيد، وماذا سيفعل السيد جون؟»

رد هوروكس: «إنه غاضب على الفاعل بشدة، بعد أن دمر ممتلكاته بهذا الشكل وأفسد ترتيباته على نحو أشعره بالإهانة.»

وبعد توقفٍ مؤقت، تحرك هوروكس، ووقف الكاهن ينظر إلى الأرض بدون انفعال ظاهر وقد أصبحت رابطة عنقه على مؤخرة رقبته تقريبًا خلافًا لعادته.

قال هوروكس: «رأيت أن أخبرك يا سيدي.»

قال الكاهن: «مفهوم، شكرًا لك هوروكس.» ثم حكَّ مؤخرة رأسه وقال متلعثمًا: «ربما، أعتقد أن أفضل شيء هو ... أمتأكد أنت أن السيد آنجيل هو الفاعل؟»

رد هوروكس: «ما كان لشيرلوك هولمز نفسه أن يكون أكثر تيقنًا.»

قال الكاهن: «عليَّ إذن أن أرسل رسالة للسيد جون.»

٣٩

كان حديث الكاهن على مائدة العشاء تلك الليلة — بعد أن روى الملاك القصة من وجهة نظره — مليئًا بتفسيرات لأمورٍ كئيبة، وتكرر فيه ذكر أشياء من قبيل السجون والجنون.

قال الكاهن: «لم يعد يمكننا الآن أن نكشف حقيقتك لأحد، كما أن الأمر مستحيل، لا أعرف ماذا يمكنني أن أقول، أعتقد أنه يتعين علينا مواجهة الظروف الراهنة، لقد أُسقط في يدي، وعقلي مشتَّت بين عالمين. لو كان عالمك الملائكي مجرد حلم، أو كان عالمي هذا هو الحلم، أو أمكنني أن أصدق أحد الحلمَين أو كليهما، لزال سبب حيرتي وشقائي، لكنَّ أمامي ملاكًا حقيقيًّا، واستدعاء حقيقيًّا مقدمًا بحقِّه، ولا أعرف كيف لعقلي أن يتقبَّل ذلك، عليَّ أن أتحدَّث إلى جوتش، لكنه لن يفهم، لن يفهم أحد ...»

قال الملاك: «يؤسفني أن أُسبِّب لك هذه المتاعب الشديدة بتنافري المزعج مع هذا العالم.»

قال الكاهن: «لستَ أنت المشكلة، رأيي أنك أضفتَ إلى حياتي شيئًا فريدًا وجميلًا. لست أنت المشكلة، بل أنا نفسي، ليتني أملك إيمانًا كافيًا بأي العالمين، ليت إيماني بهذا العالم راسخ تمامًا فأعتبرك مجرد ظاهرة استثنائية مثل كرامب، لكني لست مثله، يتأرجح إيماني بين عالم الأرض وعالم الملائكة، فتارة هنا، وتارة هناك.»

ثم قال: «لا بد أن جوتش سيكون بغيضًا كعادته، وما حدث يضعني تحت رحمته، وهو مثال على سوء الخلق، أعرف ذلك عنه. يعاقر الخمر ويقامر ويفعل ما هو أسوأ من ذلك، ومع هذا فهو معارض لسحب اعتراف الدولة بالكنيسة، لا بد للمرء أن يعطي لقيصر ما لقيصر.»

عاد الكاهن بعد ذلك إلى الاستغراق في التفكير فيما حدث تلك الظهيرة وقال عدة مرات: «إن لوجودك معنًى كبيرًا.»

ذهب الملاك إلى غرفته متحيرًا شديد الاكتئاب؛ فقد كان عبوس العالم في وجه طباعه الملائكية يزداد قبحًا يومًا بعد يوم، ولاحظ كيف كان تأثير ما حدث من متاعب على الكاهن، بيد أن خياله لم يَهْدِه إلى وسيلةٍ لتجنبها، كان كل شيء غريبًا وغير منطقي. ها هي القرية تلفظه منها مجددًا بعدما طُرد منها رجمًا في المرة الأولى.

وجد الكمان على السرير حيث تركه قبل العشاء، فأخذه وطفق يواسي نفسه بالعزف عليه، إلا أن معزوفته هذه المرة لم ترسم صورةً ساحرة لأرض الملائكة، وبدأت قسوة هذا العالم تتسرب إلى روحه. مر أسبوع لم يعرف فيه إلا الألم والنبذ والريبة والكُره، وبدأت بذرة الثورة تنبت في قلبه. عزف لحنًا ناعمًا ورقيقًا مثل ألحان أرض الملائكة، لكنه هذه المرة كان محملًا بالأسى والكدِّ البشريَّيْن، ثم تصاعد اللحن على ظهر نغمة من التحدي، وسرعان ما هوى إلى قاع الحزن، سمع الكاهن هذا كله، فتحوَّلت كل منغصاته إلى مزيجٍ واحد من الكآبة، كآبة تختلف تمامًا عن الحزن بصورته الخام، وفي هذه الأثناء كان شخصٌ آخر غير الكاهن يستمع لعزف الملاك، شخص لم يخطر ببال الكاهن أو الملاك.

ديليا

٤٠

كانت ديليا على بعد أربع أو خمس ياردات فقط عن الملاك وهو يعزف في العلية الغربية، وكانت النافذة ذات الحواجز المعينة الشكل لحجرتها البيضاء الصغيرة مفتوحةً. جثت على صندوق من الصفيح المطلي بدهانٍ أسود، وأسندت ذقنها إلى يدَيها، وكوعَيها إلى النافذة. أطلَّ القمر من فوق أشجار الصنوبر، فنشر نوره الناعم البارد الشفاف على القرية الناعسة الساكنة، وعلى وجهها الأبيض الجميل، فكشف عن عمقٍ جديد في عينَيها الحالمتَين، وتباعدت شفتاها الناعمتان فكشفتا عن أسنانٍ بيضاءَ صغيرة.

كانت ديليا مستغرقة في تفكيرٍ عميق، تجول بخاطرها أفكارٌ عن المعجزات كتلك التي تغازل خيال الفتيات. بل لم يشغلها حينئذٍ الفكر بقدر ما اعتملت في وجدانها المشاعر، جالت في سماء خيالها سحبٌ شفافة من مشاعرَ رقيقة، وأخذت السحب تأتلف في أشكال لا تكاد تتكون حتى تختفي. كانت رقيقة المشاعر، تراوحها رغبةٌ غريبة في التضحية بنفسها، وتسيطر تلك الرغبة على قلبها كما تزور قلوب الفتيات دونما استئذان، حتى تطردها متاعب الحياة اليومية وهمومها شر طردة، ثم تعود مرةً أخرى مندفعةً طاغية، كاندفاع نبتة البرسيم تحت أسنان المحراث إذ يقتلعه المزارع من أرضه. كانت تتأمل ضوء القمر الهادئ من قبل أن يبدأ الملاك في العزف بوقتٍ طويل، وتنتظر، حتى انبعثت في الصورة الجميلة التي رسمتها الظلال والضوء الفضي الرقراق تلك الموسيقى الحالمة.

لم تندَّ عنها حركة سوى انطباق شفتَيها وزيادة الْتماع عينَيها. كانت قد فكرت من قبلُ في البهاء الذي أحاط بذلك الأحدب وهو يحدثها مع غروب شمس ذلك اليوم، كما كانت تفكر في الكثير والكثير من النظرات واللفتات الأخرى ولمسة اليد الوحيدة تلك، وفي

عصر ذلك اليوم الآخر حين سألها تلك الأسئلة الغريبة. أما الآن فقد كانت الموسيقى ترسم وجهه أمامها، فتتخيل نظرة الفضول والانشغال تلك تخترق روحها حتى الأعماق. بدا كأنه يحادثها مباشرة، ويخبرها عن وحدته والمتاعب التي تؤرقه. ليس الندم بهين، وليس الشوق بزائل، وليست ورطته باليسيرة. كيف لخادمة أن تساعد ذلك اللبق الذرب اللسان اللطيف المعاملة الذي يعزف بهذا الجمال؟ كانت الموسيقى ناعمةً ومسترسلة، ولمست شغاف قلبها فاشتدت قبضة إحدى يدَيها على الأخرى، وانسالت الدموع على وجهها الجميل.

قد يقول كرامب إن هذا لا يحدث للشخص إلا لعلة في جهازه العصبي؛ فالحب من منظور العلم علة.

أعلم أن هذا الجزء من القصة قد يثير حفيظة البعض، حتى إنني حاولت أن ألتفَّ على الحقيقة مرضاة لسيدات المجتمع القارئات، لكني لم أستطع؛ فقد فرضت الحقيقة إرادتها على قصتي، فإذا بي أكتبها بعينَين مفتوحتَين على اتساعهما. لا بد أن تظل ديليا خادمةً كما هي. وأعلم أن منح خادمةٍ بسيطة — خاصة لو كانت إنجليزية — مشاعرَ إنسانيةً سامية، وجعلها تتحدث بأي شيء غير لهاثها المضطرب، يقصيني من مصافِّ الكتَّاب المرموقين؛ فالتعاطف مع الخدم (ولو بالفكر فقط) أمرٌ خطير هذه الأيام. لا يمكنني أن أدافع عن نفسي (ولو كان دفاعًا واهنًا) إلا بالقول إن ديليا كانت خادمةً استثنائية. ربما يتبين بالبحث أن والديها ينتميان إلى أعلى فئات الطبقة المتوسطة، وأنها من طينة هذه الطبقة. كما أنني أتعهد (وربما عاد هذا التعهد على قضيتي بفائدةٍ أكبر) أني سأعدل كفة الميزان في أحد أعمالي القادمة، سأرسم للقارئ الصبور الصورة التي ينتظرها لأمثالها؛ قدمَين ويدَين كبيرتَين، وطريقة الكلام التي يتحدثن بها (والصفات الشكلية التي يتسمن بها)، والاستعداد التام للتنازل عن احترامهن مقابل عملةٍ معدنيةٍ صغيرة. هذه هي الصورة المقبولة للخادمة الإنجليزية، بل وللمرأة الإنجليزية العادية (إذا لم تكن ذات مال أو إنجازات)، هكذا يجري تصويرها في أعمال الكتاب المعاصرين، لكن ديليا كانت تختلف عن ذلك نوعًا ما، ولم يسعني إلقاء اللوم إلا على الظروف؛ فقد تجاوز الأمر حدود قدرتي.

الدكتور كرامب يتدخَّل

٤١

في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي نزل الملاك إلى القرية. تسلَّق السور وخاض في زراعات القصب التي يصل ارتفاعها إلى خصره والتي تحيط بسيدر، كان ذاهبًا إلى خليج باندرام ليشاهد البحر عن قرب، لو كان الطقس صافيًا لتمكن من رؤيته من مناطقَ أعلى في حديقة سيدرمورتون. وفجأة صادف كرامب جالسًا يدخن على جذع شجرة (كان من عادة كرامب أن يخرج إلى الهواء الطلق للتدخين، وأن يأتي على أونصتَين كاملتَين من التبغ في الأسبوع).

قال كرامب في حيوية: «مرحبًا! كيف حال جناحك؟»

قال الملاك: «جيد جدًّا، اختفى الألم.»

قال كرامب: «أتعرف أنك الآن تتعدى على ممتلكات الغير؟»

رد الملاك: «أتعدى؟!»

قال كرامب: «ألا تعرف معنى ذلك؟»

رد الملاك: «كلا، لا أعرف.»

قال الدكتور كرامب: «عليَّ أن أهنئك، لا أعلم إلى أي مدًى ستواصل الادعاء، لكنك بارع فيه حتى الآن، للوهلة الأولى ظننتك مذهونًا، لكنك تواصل تمثيليتك بإتقان، تظاهرك بالجهل التام بالحقائق الأساسية في الحياة مسلٍّ جدًّا، تفوتك بعض الأمور بالطبع، ولو كانت قليلة جدًّا، لكن لا شك أن كلينا يفهم الآخر جيدًا.»

وابتسم للملاك وواصل: «لم يكن شيرلوك هولمز ليتفوق عليك، أتوق لمعرفة هويتك الحقيقية.»

رد الملاك الابتسامة، ورفع حاجبَيه ومدَّ يدَيه وقال: «يستحيل أن تعرف هويتي الحقيقية، عيناك لا تبصران، وأذناك لا تسمعان، وروحك مظلمة، لا تدرك شيئًا مما فيَّ من عجائب، لا جدوى من محاولة إخبارك أني وقعت في عالمك.»

لوح الدكتور بغليونه وقال: «دعك من هذه القصة رجاءً، لا أريد أن أتطفل إذا كانت لديك أسباب للتخفي، كل ما أطلبه منك هو أن تفكر في صحة هيليار العقلية؛ فالرجل يصدق هذه القصة بالفعل.»

هزَّ الملاك جناحَيه الآخذَين في الضمور.

واصل كرامب: «لم تكن تعرفه قبل هذه القصة، تغيَّر كثيرًا، كان فيما مضى مهندمًا ينعم بالراحة، أما في الأسبوعَين الأخيرَين فقد خفَّ عقله، وبدت في عينَيه نظرةٌ غريبة. وقف يقدم العظة يوم الأحد الماضي بدون دبوس بذلته، وكانت رابطة عنقه غير محكمة، وأخذ يقرأ «ما لمْ تَرَ عَينٌ، ولَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ.» يؤمن حقًّا بكل هذا الهراء عن أرض الملائكة، إنه على شفا الإصابة بحالة الهوس الأحادي.»

قال الملاك: «أنت لا ترى الأشياء إلا من وجهة نظرك.»

رد كرامب: «هذا ما على الجميع فعله، على أي حال، أعتقد أنه من المؤسف أن أرى هذا الزميل القديم المسكين في هذه الحالة الشبيهة بالتنويم المغناطيسي، لا بد أنك نوَّمته مغناطيسيًّا. لا أعلم من أين أتيت ولا مَن تكون، لكني أُحذِّرك، لن أقف مكتوف الأيدي بعد الآن وأنا أرى ذلك الزميل القديم مادةً للسخرية والتندر.»

قال الملاك: «لكنه ليس مادةً لسخرية أحد أو تندره، غاية ما في الأمر أنه بدأ يحلم بعالم خارج حدود معرفته.»

قال كرامب: «لن أقف مكتوف الأيدي، لست مغفلًا، لستَ سوى مجنون فرَّ من مصحة (وهو ما لا أصدقه)، أو محتالًا، ما من احتمالٍ آخر، أعتقد أني أعرف القليل عن هذا العالم، بصرف النظر عن رأيي في عالمك أنت. إن لم تدع هيليار وشأنه فسأبلغ الشرطة، وعندئذٍ إما أن يكون مصيرك السجن إذا عدلت عن قصتك، أو المصحة العقلية إذا لم تعدل عنها. أقسم أني سأثبت جنونك غدًا إن اقتضى الأمر لطردك من القرية. ليس الأمر كله في يد الكاهن، أتمنى أن يكون كلامي واضحًا، والآن ما قولك فيما سمعت؟»

ثم أخرج الدكتور سكينه في هدوءٍ مفتعل، وأخذ يحفر بنصله في غليونه الذي كان قد انطفأ خلال ذلك الخطاب الأخير.

وقف الاثنان لحظة بدون أن ينبس أحدهما بكلمة، ونظر الملاك حوله بوجهٍ شاحب، في حين أخرج الدكتور كتلة من التبغ من غليونه ورماها بعيدًا، ثم أغمد سكينه ووضعه في جيب الصديري الذي يرتديه. لم يتعمد أن يخرج كلامه بتلك اللهجة الحازمة، ولكنه كان دائمًا مغرمًا بالخُطب العصماء.

قال الملاك: «السجن؟! المصحة العقلية؟!» ثم تذكر شرح الكاهن فقال: «لا أريد ذلك!» واقترب من كرامب وقد اتسعت حدقتاه ومدَّ يديه.

قال كرامب: «كنت أعرف أنك تعرف ماهية هذين المكانَين، على أي حال، اجلس.» وأشار إلى جذع شجرة بجانبه بإيماءة برأسه.

جلس الملاك مرتعشًا على جذع الشجرة وحدَّق في الطبيب.

كان كرامب يخرج كيسه من جيبه، وقال له الملاك: «أنت رجلٌ غريب، معتقداتك راسخة لا تتزعزع.»

قال كرامب مختالًا: «هذا صحيح.»

قال الملاك: «لكن أؤكد لك، أؤكد لك صحة ما أقول، لا أعرف شيئًا، أو على الأقل لا أتذكر شيئًا عن أي شيء كنت أعرفه عن هذا العالم قبل أن أجد نفسي في ظلام تلك الليلة عند مستنقع سيدرفورد.»

قال كرامب: «وأين تعلمتَ لغتنا إذن؟»

قال الملاك: «لا أعرف، أصدقك القول، لكن ليس لديَّ أدنى دليل أقنعك به.»

التفت له كرامب فجأة ونظر في عينيه وقال: «وحقًّا تعتقد أنك كنت قبل ذلك في جنةٍ عظيمة خالدًا فيها؟»

قال الملاك: «نعم.»

أصدر كرامب صوتًا ينم عن عدم التصديق، وأشعل غليونه، وجلس يدخن واضعًا كوعه على ركبته لبعض الوقت، في حين جلس الملاك يراقبه، ثم هدأت تعبيرات وجهه.

ثم قال لنفسه: «هذا محتمل.» ثم عمَّ الصمت مجددًا.

ثم قال: «اسمع، هناك شيء يسمى ازدواج الشخصية، أحيانًا ينسى الرجل من هو ويعتقد أنه شخصٌ آخر. ثم يترك منزله وأصدقاءه وكل شيء، ويعيش حياةً مزدوجة. كتبت مجلة «نيتشر» عن حالة مشابهة منذ شهر تقريبًا. كان الرجل إنجليزيًّا أيمن تارة، وويلزيًّا أعسر تارة. وعندما يكون إنجليزيًّا لا يتمكن من التحدث بالويلزية، وعندما يكون ويلزيًّا لا يتمكن من التحدث بالإنجليزية.»

التفت إلى الملاك فجأة وقال: «الوطن!» معتقدًا أنه سيتمكن من أن ينعش في ذهن الملاك ذكرى قديمة عن شبابه الضائع، ثم واصل محاولته متفوِّهًا بكلمات من قبيل: «أبي، بابا، أمي، الأم، الحاكم، الولد، الأم، والدتي.» ثم قال: «لا فائدة؟ علام تضحك؟»

قال الملاك: «لا شيء، فاجأتني بعض الشيء، هذا ما في الأمر، منذ أسبوع كانت هذه الكلمات غريبة عليَّ.»

ظل كرامب ينظر إلى الملاك شزرًا لدقيقة بعد ذلك.

ثم قال: «وجهك مقنع جدًّا، تكاد تجعلني أصدقك، لا شك أنك لست بمجنونٍ عادي، يبدو عقلك متزنًا بالقدر الكافي لولا انفصالك التام عن الماضي. أتمنى أن يتمكن نوردو أو لومبورسو أو أحد رجال مصحة سولتبيتريير من فحصك. فلا فرصة حقيقية هنا ليتدرب المرء على التعامل مع الحالات العقلية. في القرية معتوهٌ واحد، وحالته متقدمة جدًّا، أما باقي أهل القرية فهم عقلاء تمامًا.»

قال الملاك متفكرًا: «ربما هذا هو تفسير تصرفاتهم.»

تجاهل كرامب تعليقه وقال: «فكِّر في وضعك العام هنا، لك تأثيرٌ سيئ على الآخرين هنا حقًّا، فهذه الخيالات مُعْدية. ليست المشكلة في الكاهن فحسب، فثمة رجلٌ يُدعى شاين بدأ يتأثر بهذه الموجة، مرَّ أسبوع لم يخرج فيه من الماء إلا قليلًا، ويريد أن يتعارك مع أي شخص ينكر أنك ملاك، وسمعت أيضًا برجل في سيدرفورد أصيب بنوع من الهوس الديني، هذه الأشياء تنتشر، يجب عزل الأفكار الضارة، وقد سمعت بقصة أخرى ...»

قال الملاك: «لكن ماذا عليَّ أن أفعل؟ بافتراض أني حقًّا (وبغير قصد) أسبب ضررًا ما.»

قال كرامب: «يمكنك مغادرة القرية.»

قال الملاك: «عندها سأذهب إلى قريةٍ أخرى.»

قال كرامب: «هذا لا يعنيني، اذهب إلى حيث تشاء، المهم أن ترحل عن هنا، اترك هؤلاء الثلاثة — أعني الكاهن وشاين والخادمة الصغيرة — الذين أصبحت رءوسهم ممتلئة بأفكارٍ غريبة عن الملائكة ...»

قال الملاك: «لكن، سأضطر إلى مواجهة عالمكم؟ هذا ما لا أستطيع، وأتركُ ديليا؟ لا أفهم، لا أعرف كيف يمكنني العمل والحصول على الطعام والشراب، لقد بدأت أشعر بالخوف من البشر.»

قال كرامب وهو يراقبه: «خيالات وجنون.»

ثم خاطبه: «لن أستفيد شيئًا من إصراري على إزعاجك، لكن الموقف يستحيل أن يستمر كما هو الآن.» وهبَّ واقفًا بسرعة.

وواصل: «طاب صباحك يا سيد آنجيل، خلاصة الأمر — وأقولها لك بصفتي المستشار الطبي لهذه الأبرشية — إن لك تأثيرًا ضارًّا، ولا يمكننا تركك بيننا، لا بد أن ترحل.»

استدار الدكتور كرامب، وأسرع بين العشب متوجهًا نحو الطريق، وترك الملاك جالسًا في وجوم على جذع الشجرة يخاطب نفسه ببطء: «تأثيرٌ ضار!» ويحدِّق إلى الأمام محاولًا فهم معنى ذلك.

تدخُّل السيد جون جوتش

٤٢

كان السيد جون جوتش رجلًا صغير الحجم ذا شعرٍ مبعثر وأنفٍ رفيع يبرز من وجهه المغطَّى بالتجاعيد، ينتعل حذاءً بُنيًّا ضيقًا، ويحمل سوطًا. وبينما كانت السيدة هينيجر تغلق الباب قال: «ها قد أتيتُك.»

قال الكاهن: «شكرًا لك، أنا ممتنٌّ لك حقًّا.»

قال السيد جوتش (بتكلُّف): «يسعدني أن أكون في خدمتك.»

قال الكاهن: «هذا الأمر، هذا الأمر المؤسف الذي حدث للسلك الشائك، إنه حقًّا، سيئ للغاية.»

رد السيد جون جوتش بمزيد من التكلف: «حقًّا.»

قال الكاهن: «كما أن استضافتي للسيد آنجيل ت...»

قاطعه جوتش حازمًا: «لم يكن هناك سبب يجعله يقطع السلك.»

رد الكاهن: «لم يكن هناك أي داعٍ.»

توقف جوتش برهة يفكر ثم قال فجأة: «هل لي أن أعرف من يكون السيد آنجيل هذا؟»

اتجهت أصابع الكاهن لا إراديًّا إلى ذقنه متفكرًا في جدوى الحديث عن الملائكة مع رجل مثل السيد جون جوتش.

ثم قال: «سأخبرك بالحقيقة كما هي، هناك سرٌّ بسيط.»

قاطعه جوتش: «السيدة هامرجالو أخبرتني.»

احمرَّ وجه الكاهن فجأة.

وواصل السيد جوتش: «أتعلم أنه يجول في القرية مروِّجًا للاشتراكية؟»

قال الكاهن: «يا للعجب! مستحيل!»

قال جوتش: «بلى، لا يترك أيًّا من أجلاف القرية الذين يصادفهم بدون أن يكثر الحديث معه عن ذلك، ويسأله لماذا يضطر للعمل في حين نظل نحن — أعني أنا وأنت — بلا عمل. ويقول لهم إنه ينبغي أن يحصل الجميع على قسط من التعليم يكافئ تعليمي وتعليمك، بدون أي منطق. كما يقول إننا — أنا وأنت — نقمع هؤلاء الناس، وننزع أدمغتهم.»

قال الكاهن: «يا للهول! لم أكن أعلم.»

قال جوتش: «لم يكن قطعه للسلك إلا عملًا استعراضيًّا، استعراضًا اشتراكيًّا، إن لم نضرب على يده بحزم وحسم، فستُهدم الأسوار وتزال الحواجز من فليندرز لين، ثم تشتعل نار الفوضى، وستأتي النار على الأخضر واليابس (أتوسل إليك أيها الكاهن). سوف يتهشم بيض كل طائر مبارك في الأبرشية.»

قال الكاهن في صدمة: «اشتراكي؟! لم يكن لديَّ علم بذلك.»

قال جوتش: «أترى الآن لماذا أريد الضغط على ذلك الرجل رغم أنه ضيفك، يبدو لي أنه يستغل أُبوَّتك.»

قال الكاهن: «أُبوَّة؟! كلا، الأمر ليس كذلك ...»

قال جوتش: «(أستميحك عذرًا نيافة الكاهن) كانت زلة لسان، أقصد يستغل عطفك ليعيث في القرية فسادًا، ويؤلب إحدى طبقات مجتمعها على الأخرى، ويبغِّض الفقراء في سبل عيشهم.»

كانت أصابع الكاهن لم تزل تعبث بذقنه.

وواصل السيد جون جوتش: «هناك حلَّان لا ثالث لهما؛ إما أن يغادر ضيفك هذه الأبرشية، وإما أن أتدخل أنا وأفعل ما ينبغي فعله، وهذا كل ما لديَّ.»

استمع الكاهن في حين بدت دهشته في حركة فمه.

قال السيد جون وهو ينهض: «هذا موقفي من الأمر، ولولاك لتدخلت وفعلت اللازم على الفور، هل لي أن أفعل اللازم أم لا؟»

قال الكاهن في ارتباكٍ شديد: «أنصت إليَّ!»

«أجل؟»

«لا بد من القيام ببعض الترتيبات.»

قال جوتش: «إنه عديم الفائدة ينشر الضرر، أعرف أمثاله، لكني سأمهلك أسبوعًا.»

قال الكاهن: «شكرًا لك، أتفهَّم موقفك، وأعلم أن الوضع بدأ يتجاوز حدود ما يُطاق.»

قال السيد جون: «أعتذر عن إزعاجك.»

قال الكاهن يطمئنه: «أسبوع.»

رد السيد جون مؤكدًا وهو يغادر: «أسبوع.»

ظل الكاهن جالسًا إلى مكتبه في الغرفة، وبعد صمتٍ مشوب بالتوتر خاطب نفسه: «أسبوع! ها هو ذلك الملاك العظيم الذي فتح في روحي نوافذ للجمال والبهاء، وفتح عينيَّ على أرض العجائب، أو ما هو أعظم من أرض العجائب، وها أنا قد تعهدت بالتخلص منه في غضون أسبوع! من أي شيء خُلقنا نحن البشر؟ وكيف لي أن أخبره؟»

أخذ يذرع غرفة المكتب، ثم غادرها إلى غرفة الطعام ووقف يحدق في حقل الذرة بدون أن يبدو على وجهه أي تعبير. كان طعام الغداء جاهزًا على الطاولة، التفت نحوه بعد لحظات وهو لم يزل شارد الذهن، وأخذ كأسًا من الخمر بحركةٍ لا إرادية.

على الجرف

٤٣

استلقى الملاك على قمة الجرف المطل على خليج باندرام، وأخذ يشاهد البحر اللجي أسفل منه بخمسمائة وسبع أقدام. كانت الطيور البحرية تحوم في الأسفل، وكان أعلى الجرف مغطًّى بأحجارٍ خشنةٍ مائلة للخضرة، بينما طغت على ثلثَيه السفليَّين حمرةٌ دافئة وانتشرت فيه مساحاتٌ من الحصى والجصِّ. أخذت دفقاتٌ من المياه تتصاعد من نحو ستة مواضع ثم تهوي من جديد وتستقر على صفحة البحر الذي انفصلت عنه. واصطدم الموج بالشاطئ مكوِّنًا زبَدًا أبيضَ كثيفًا، وظللت صخرةٌ عظيمة على امتداد من المياه التي تلوَّنت بدرجاتٍ كثيرة من الأخضر والقرمزي ورسم الزبد على سطحها خطوطًا وطبقاتٍ عديدة. انتشر ضوء الشمس في الأجواء، وتناهت إلى الأسماع رقرقة المياه في العديد من الشلالات الصغيرة القريبة وهدير بطيء من البحر. وبين الفينة والأخرى كانت فراشةٌ ترفرف أعلى الجرف، في حين أخذت طيورٌ عديدة تحطُّ على الجرف حينًا ثم تطير منه إلى أرجاء السماء.

استلقى الملاك وجناحَاه المهيضَان المنهكَان يعلوان ظهره كالحدب، وأخذ يراقب النوارس والغربان تطوف في ضوء الشمس، تحلق وتدور ثم تهبط نحو المياه حينًا وترتفع إلى عنان السماء الزرقاء حينًا. مكث الملاك طويلًا يشاهدها تُحلِّق ذهابًا وإيابًا بأجنحتها الممتدة. شاهدها وتذكَّر بتوقٍ مرير الأنهار التي يجري فيها ضوء النجوم في الأرض الطيبة التي جاء منها. وبينما هو كذلك ظهر فوقه نورس نشر بياض جناحَيه في أديم السماء الزرقاء وحلَّق في نعومة ويسر، وفجأة سقط ظل النورس على عينَيه فحجب عنهما ضوء الشمس وذكَّره بجناحَيه المهيضَين، فأسند وجهه على ذراعه وأجهش بالبكاء.

وبينما كانت امرأةٌ تمشي في ممرٍّ على الجرف وقعت عيناها على أحدبَ جاثٍ يرتدي ملابس كاهن سيدرمورتون القديمة ويمدُّ ساقَيه على حافة الجرف بعشوائية ويضع جبهته على ذراعه. فتأمَّلته مليًّا ثم قالت: «لقد خلد ذلك الأحمق للنوم.» ورغم أنها كانت تحمل سلةً ثقيلة اقتربت منه تريد إيقاظه، وما إن اقتربت حتى لاحظت حركة كتفَيه وسمعت نشيجه.

وقفت دقيقة بلا حراك، وارتسمت على وجهها ابتسامةٌ غريبة. ثم غيَّرت مسارها واتجهت نحو الممر على مهل مخاطبة نفسها: «لا أعرف ماذا ينبغي أن أقول، مسكين!»

وفجأة انقطع نشيج الملاك وحول وجهه المترع بالدموع إلى الشاطئ القابع في الأسفل وأخذ يحدِّق فيه.

وقال: «هذا العالم يقيدني ويبتلعني، أصبح جناحاي مهترئَين وعديمي النفع، قريبًا سأصبح رجلًا بشريًّا معاقًا لا أكثر، ثم سأشيخ، ويحل بي الألم وفي النهاية أموت، يا ليَ من بائسٍ وحيد.»

ثم أسند ذقنه إلى يديه على حافة الجرف، وطفق يفكر في وجه ديليا والنور المنبعث من عينَيها، وشعر برغبةٍ غريبة في الذهاب إليها وإخبارها بقرب ضمور جناحَيه، وفي ضمها بين ذراعيه وسكْب الدموع السخينات على أرضٍ فقدها، أخذ يُردِّد اسم «ديليا» حتى مرَّت غمامة فحجبت عنه الشمس.

تدخُّل السيدة هينجير

٤٤

فاجأت السيدة هينيجر الكاهن بأن طرقت على باب مكتبه بعد تناول الشاي وقالت: «أستميحك عذرًا سيدي، لكن هل لي أن أتحدث معك لدقائق؟»

رد الكاهن متوقعًا خبرًا سيئًا آخر: «بالتأكيد يا سيدة هينيجر.» وكان عندئذٍ يحمل في يده خطابًا غريبًا ولاذعًا من الأسقف، أزعجه الخطاب وأصابه بالغم؛ إذ أخذ عليه الأسقف سوء اختياره لمن يستضيف في منزله. ما كان لأسقف أن يكتب خطابًا كهذا إلا إذا كان يحظى بشعبية تبثُّ في نفسه شيئًا من الغوغائية ويعيش في كنف حكمٍ ديمقراطي.

سعلت السيدة هينيجر في يدها وحاولت ضبط أنفاسها المضطربة، في حين تخوَّف الكاهن مما في جعبتها على عادته في معظم الأحاديث التي تجمعهما؛ إذ لا ينتهي أحدها إلا ويترك في نفسه قلقًا جديدًا.

قال الكاهن مستحثًّا إياها: «كلي آذانٌ مُصْغية.»

قالت وهي تسعل مجددًا: «هل لي أن أسأل عن موعد رحيل السيد آنجيل؟» (تسعُل.)

رد الكاهن ببطء مكررًا سؤالها لكسب الوقت: «موعد رحيل السيد آنجيل؟ أنتِ أيضًا تسألين!»

قالت: «عذرًا سيدي، لكني اعتدت على خدمة أفاضل الناس، أما خدمة شخص مثله فلا يمكنك تخيل صعوبتها.»

قال الكاهن: «شخصٌ مثله؟! هل أفهم من ذلك يا سيدة هينيجر أن السيد آنجيل لا يروقك؟»

ردت: «الأمر يا سيدي أني قبل انتقالي إلى خدمتك كنت أعمل في منزل السيد داندولر لسبعة عشر عامًا، وأنت نفسك يا سيدي رجلٌ فاضل من أهل الكنيسة، أما ...»

قاطعها الكاهن: «مهلًا عزيزتي! ألا تعتبرين السيد آنجيل رجلًا فاضلًا؟»

ردت: «يؤسفني أن أضطر لقول ذلك سيدي، ولكن ...»

قال: «ولكن ماذا؟ يا للعجب!»

واصلت: «يؤسفني أن أقول ذلك سيدي، لكن عندما يقرر ضيفٌ فجأة ألا يأكل إلا النباتات فيُقدم على إطفاء كل نيران الطهي، وعندما لا تكون لديه أمتعةٌ شخصية فيسعى إلى استعارة القمصان والجوارب من مضيفه، وعندما لا يجيد تناول الطعام فيحاول قطع حبات البازلاء بسكينه (كما رأيتُ بعينيَّ)، ثم يطوي منديله بعد تناول الطعام، ويدب أصابعه في اللحم المفروم، وعندما يعزف الكمان في منتصف الليل فلا يترك أحدًا ينام، وعندما يحدق بابتسامةٍ غريبة في وجه من يكبرونه وهم يصعدون الدرج، وعندما يسيء التصرف بوجهٍ عام بطُرق لا يسعني ذكرها كلها لك، عندئذٍ لا يسع المرء إلا أن يُكوِّن رأيًا عن ذلك الشخص. حرية الفكر مكفولة يا سيدي، ولا يسع المرء إلا التوصُّل إلى استنتاجات بعينها. وعلاوة على ذلك، يدور في كل أرجاء القرية حديثٌ كثير عنه. يمكنني تمييز الرجل الفاضل عندما أراه، ويمكنني تمييز من هو ليس كذلك. تحدثت أنا وسوزان وجورج في الأمر مطولًا، بوصفنا كبار الخدم وأكثرهم خبرة. فضلًا عن أمر تلك الفتاة ديليا، أتمنى ألَّا يتسبب في إلحاق أي ضرر بها، صدقني يا سيدي، السيد آنجيل ليس كما تظنُّه، يُستحسن أن يترك هذا المنزل في أقرب وقتٍ ممكن.»

توقفت السيدة هينيجر عن الحديث فجأة ووقفت تتردد أنفاسها بعنف ويبدو على وجهها التجهُّم وعيناها لا تفارقان وجه الكاهن.

قال الكاهن: «حقًّا يا سيدة هينيجر؟! يا إلهي!»

ثم وقف وقلبه يتضرع آملًا في تغيير مصير بدا له محتومًا وقال: «ماذا فعلتُ؟ ماذا فعلتُ؟»

قالت السيدة هينيجر: «لا يمكننا أن نجزم بشيء، لكن هناك الكثير من الأقاويل في القرية.»

قال الكاهن: «تبًّا!» ثم توجه إلى النافذة وأطلَّ منها، ثم التفت وقال: «اسمعي يا سيدة هينيجر، السيد آنجيل سيغادر هذا المنزل في غضون أسبوع، أهذا كافٍ؟»

ردت: «كافٍ تمامًا سيدي، أنا متأكدة من ذلك.»

وعندئذٍ وقعت عينا الكاهن على الباب وتعلقتا به على نحوٍ غير معهود.

الملاك في مأزق

٤٥

قال الكاهن: «الحقيقة أن لا وجود لعالم الملائكة.»

لم تكن الستائر قد أُسدلت بعدُ، فظهر اللون الرمادي البارد الذي صبغ به الغسق أديم السماء. جلس الملاك إلى الطاولة في وجوم. كان قد علم بحتمية رحيله بعد أن أدرك أن وجوده آذى الناس وجلب على الكاهن النقمة، وأدرك كذلك مسوغات القرار، بيد أنه لم يعرف ماذا عساه أن يفعل بعد خروجه من المنزل لمواجهة العالم وحده. موقفٌ صعب لا شك.

قال الكاهن: «لديك الكمان، لكن بعد التجربة التي مررنا بها أ...»

ثم واصل بعد انقطاع: «عليَّ أن أجهز لك ملابس أو زيًّا ترتديه، يا إلهي! أنت لا تفهم نظام السفر بالسكك الحديدية، ولا العملات المعدنية، ولا كيفية الحصول على مسكن، ولا المطاعم. لا بد أن أساعدك إلى حين استقرار أمورك، وأن أدبِّر لك عملًا تقتات منه، لكن ... ملاك في لندن؟ ويعمل لكسب العيش؟ بين الدهماء؟ ماذا قد يحل بك؟ ليت لي في هذا العالم صديقًا واحدًا أثق في أنه سيصدقني!

كان عليَّ ألَّا أطلب منك الرحيل.»

قال الملاك: «لا تقلق بشأني يا صديقي، على الأقل حياتكم هذه تنتهي، وتحدث فيها أمور، هناك أشياء في حياتكم هذه، لقد توليتني بالرعاية، وكنت أظن أن حياتكم ليس فيها أي جمال.»

قال الكاهن وقد دهمه ندمٌ مفاجئ: «لكني خنتك! لماذا لم أواجههم جميعًا، أليس هذا مما تحلو به الحياة؟ ما أهمية شئون الحياة اليومية؟»

وبعد توقفٍ مفاجئ كرر: «ما أهميتها؟»

قال الملاك: «لم أجلب إلى حياتك إلا المتاعب.»

قال الكاهن: «لا تقل ذلك، بل جئت لتوقظني، لقد كنت منغمسًا في حلمٍ طويل. كنت أحلم بأن كل ما يحدث في هذه الحياة ضروري وأن هذا السجن الضيق هو العالم كله، ولا يزال الحلم محيطًا بي ويقضُّ مضجعي. هذا كل ما هنالك، حتى رحيلك، أليست ضرورة رحيلك مجرد حلمٍ يراودني؟»

وعندما خلد الكاهن للنوم في تلك الليلة تجلى له الطابع الغرائبي لكل ما حدث، استلقى على سريره مسهَّدًا وراوحته رؤًى فظيعة عما قد يحل بزائره الطيب الرقيق في تجواله بهذا العالم الذي لا يرحم، وما قد يصادفه من عاديات الدهر. كان ضيفه ملاكًا بلا شك. حاول أن يجترَّ ما حدث في الأيام الثمانية الماضية مجددًا. تذكر الظهيرة القائظة، والنار التي أدت به المفاجأة إلى إطلاقها، ورفرفة الجناحَين ذوَي الألوان العديدة، وذلك الكائن الجميل المكسوَّ برداء بلون الزعفران وهو طريح على الأرض، وانبهاره بروعة المشهد كله! ثم تذكر ما سمعه عن العالم الآخر، وشرد عقله إلى الأحلام التي سحبه إليها عزفه على الكمان، والمدن الرائعة الغامضة التي تظهر وتختفي في أرض الملائكة. حاول أن يتذكر التضاريس والمباني، وأشكال الثمرات التي تدلَّت من الشجر، والكائنات المجنَّحة التي انتشرت بين هذا كله. ثم تحوَّل كل ذلك من ذكريات إلى واقعٍ فعلي أخذ يتجلَّى له شيئًا فشيئًا في حين ظلت متاعبه تتضاءل شيئًا فشيئًا، وهكذا وبنعومة ويسر، انسلَّ الكاهن من بين متاعبه ومؤرقاته وانغمس في أرض الأحلام.

٤٦

جلست ديليا أمام نافذتها المفتوحة تُمنِّي النفس بسماع عزف الملاك، لكنه لم يعزف تلك الليلة. كثرت في السماء الغيوم لكنها لم تكفِ لإخفاء القمر تمامًا. كان ستارٌ من الغيوم يسير في جو السماء فيختفي القمر وراءه حينًا فلا يظهر منه إلا بقعةٌ مبعثرة من الضوء، ثم تخبو بقعة الضوء حينًا، ثم تمر غلالةٌ خفيفة من الغيوم فتفسح المجال لضوء القمر فيظهر ساطعًا بهيًّا وسط زرقة الليل. تناهى إلى سمعها صوت فتح باب الحديقة، ثم رأت شخصًا يخرج منه تحت ضوء القمر المتردد.

لم يكن ذلك الشخص سوى الملاك، لكنه استعاض عن المعطف الذي لم يكن يناسبه بردائه الزعفراني الذي جاء به. لم يبدُ من الرداء تحت ضوء القمر الخافت إلا بريقٌ لا لون

محددًا له، وبدا جناحاه من خلفه بلونٍ رماديٍّ كئيب. بدأ يجري لمسافاتٍ قصيرة ويرفرف بجناحَيه ويقفز ثم يعود إلى نقطة البداية ويكرر ذلك مجددًا تحت ضوء القمر وظلال الأشجار، في حين جلست ديليا تراقبه في ذهول. أطلق صرخة يأس وقفز لارتفاع أعلى، فأصدر جناحاه المهترئان وميضًا ثم سقطا، ومرت غيمة أكثر كثافة أمام القمر فحجبت نوره وأضفت على المشهد مزيدًا من الغموض. بدا أنه حاول القفز لارتفاع خمسة أو ستة أقدام ثم سقط مضطربًا. رأته على الضوء الخافت يقع على الأرض ثم ينتحب.

زمَّت ديليا شفتَيها وحدقت وقالت: «لقد أصيب؛ عليَّ مساعدته.»

ترددت ثم وقفت واندفعت نحو الباب بسرعة، وهبطت الدرج وخرجت إلى نور القمر، فوجدت الملاك مستلقيًا على أرض الحديقة كما هو، ينتحب على بؤسه الشديد.

جثت ديليا أمامه ولمست رأسه مترددة وقالت: «ما الخطب؟»

كفكف الملاك دموعه واعتدل في جلسته وحدق فيها فرأى وجهها في ضوء القمر وقد بدا عليه الحنو والإشفاق، كررت هامسة: «ما الخطب؟ هل تعرضت لإصابة؟»

حدق الملاك حوله ثم استقرت عيناه على وجهها، فقال: «ديليا!»

وكررت مجددًا: «هل تعرضت لإصابة؟»

قال: «جناحاي ... لا يمكنني استخدامهما!»

لم تفهمه ديليا، لكنها أدركت أن الخطب جلل، واصل الملاك: «الظلام في كل مكان، والطقس بارد، ولا يمكنني استخدام جناحيَّ.»

أشفقت عليه بشدة عندما رأت الدموع تنسال على وجهه، ولم تعرف ما عليها أن تفعل.

مد الملاك ذراعيه فجأة نحوها وقال: «أشفقي عليَّ يا ديليا، أشفقي عليَّ.»

جثت بلا تفكير وطوقت وجهه بيديها وقالت: «لا أعلم ما الأمر، لكني أُشفق عليك، أشفق عليك من كل قلبي.»

لم ينبس الملاك بكلمة، بل ظل يتأمل وجهها الصغير في ضوء القمر، وبدا في عينَيه الانبهار والتعجب وقال: «يا لغرابة هذا العالم!»

سحبت يديها فجأة، ومرت غيمةٌ جديدة أمام القمر، وقالت ديليا: «ماذا يمكنني أن أفعل لمساعدتك؟ سأفعل أي شيء لمساعدتك.»

ظل ممسكًا بها بذراعَيه، وحلَّ الارتباك على وجهه محل البؤس، وكرر: «يا لغرابة هذا العالم!»

كانت جاثية على ركبتَيها وهو جالس، في حين سقط عليهما ضوء القمر المتراقص يتحدى ظلام الحديقة.

وفجأة جاء نداء السيدة هينيجر من نافذتها: «ديليا! أهذه أنت؟»

نظرا إلى النافذة في تخوف.

قالت السيدة هينيجر: «تعالي إلى هنا فورًا يا ديليا! إذا كان السيد آنجيل هذا رجلًا (وهو لم يكن كذلك في واقع الأمر) مهذبًا لشعر بالخزي من نفسه، فأنتِ يتيمة فوق كل شيء!»

اليوم الأخير في الزيارة

٤٧

في صباح اليوم التالي تناول الملاك فطوره ثم خرج قاصدًا المستنقع، وتحدثت السيدة هينيجر مع الكاهن، وليس المهم الآن أن نسرد تفاصيل ما جرى. بدا على الكاهن امتعاضٌ شديد وقال: «يجب أن يرحل، يجب أن يرحل بكل تأكيد.» ونسي الاتهام الأساسي في غمرة الاضطراب. أمضى الصباح في تأملٍ طويل لم يقطعه إلا مطالعة قائمة أسعار سكيف آند ووترلو ودليل المتاجر الطبية والبحثية والمكتبية. وبدأت ملامح قائمة مهام مكتوبة على ورقة كانت أمامه على المكتب في الظهور. قص نموذج قياسات الجسم من قسم الملابس في مجلة «ذا ستورز» وثبته على ستار في المكتب، كان يعد وثيقة محتواها كالآتي:

«معطف أسود ماركة ميلتون فروك ٣,١ جنيهات إسترلينية.

بنطال أو اثنان.

بذلة من ماركة شيفيو توييد (اكتب الطراز والقياسات الشخصية).»

أخذ الكاهن يتأمل أشكال بعض الرجال المهندمين في المجلة لبعض الوقت، كانوا جميعًا حسني الهيئة، لكنه وجد صعوبة في تخيل مظهر الملاك إذا تغيَّر ليصبح مثل مظهرهم؛ إذ لم يحصل الملاك على أي بذلةٍ تناسبه هو رغم مرور ستة أيام. تردد الكاهن بين فكرة اصطحاب الملاك بالسيارة إلى بورتبردوك لأخذ مقاساته لتفصيل بذلة له، ورعبه الشديد مما قد يبدر من الحائك الذي استأجره، لا بد أن الحائك سيطلب تفسيرًا كاملًا لكل شيء. كما أنه لم يعرف متى سيرحل الملاك بالتحديد. مرت الأيام الستة، وبدأ الملاك يعتاد هذا العالم وغطت الملابس الجديدة التي ابتاعها الكاهن له بهاءه.

«قبعة من اللباد الطري، ز. ٧.

قبعة من الحرير ١٤، علبة لحفظ القبعة.»

قال الكاهن: «أعتقد أنه ينبغي أن تكون لديه قبعة من الحرير، فهي رائجة هنا، الشكل رقم ٣ يبدو مناسبًا له، لكن من الصعب عليَّ أن أتخيله وحيدًا في هذه المدينة الكبيرة، سيسيء الجميع فهمه، وسيسيء هو فهم الجميع. ومع ذلك لا مفر من ذلك، إلى أين وصلتُ في قائمة المستلزمات؟

فرشاة أسنان، فرشاة ومشط، موسى حلاقة.

ستة قمصان (ينبغي أخذ مقاس رقبته).

جوارب، بنطال.

منامتان (كم سعرهما؟ لنقُلْ ١٥).

درزينة من الياقات (من نوع ذا لايف جاردزمان).

دعامات (أوكسون باتنت فيرساتايل).

(قال الكاهن: «لكن كيف سيتمكن من استخدامها؟»)

طابع مطاطي باسم تي آنجيل، ولوح تحبير كامل.

(لا بد أن السيدات اللاتي يمتهنَّ غسل الملابس سيسرقن كل أغراضه.)

سكين جيب أحادي النصل مزود بفتاحة.

ملحوظة: لا تنسَ دبوس البدلة، ودبوس ياقة. (أعجب الكاهن بالعلامة التجارية، ووجد أنها ستُضفي مظهرًا عمليًّا.)

حقيبة سفر جلدية. (الأفضل مشاهدة هذه!)»

انهمك الكاهن في التبضع على مهل حتى حل موعد الغداء، وكان الأسى يعتصر قلبه في تلك الأثناء.

لم يعد الملاك لتناول الغداء، ولم يكن ذلك لافتًا للنظر؛ فقد فوَّت الغداء مرة من قبلُ. لكن بالنظر إلى قصر الوقت المتبقي لهما معًا، كان من المتوقع أن يعود. لا بد أن لديه أسبابًا وجيهة لغيابه عن الغداء. تناول الكاهن الغداء في غير اهتمام، وخلد بعد الظهر للراحة على النحو المعتاد، وأضاف إلى قائمة المستلزمات بعض البنود. ولم يبدأ القلق على الملاك يتسرب إلى نفسه حتى حان موعد تناول الشاي. انتظر لمدة نصف ساعة تقريبًا قبل تناول الشاي، ثم خاطب نفسه: «غريب!» وهو يحتسي شايه شاعرًا بالوحدة.

ومر الوقت ثقيلًا حتى حان موعد العشاء ولم يظهر الملاك، فبدأ الكاهن يتخيل احتمالاتٍ مزعجة، خاطب نفسه وهو يعبث بذقنه: «لا بد أنه سيأتي لتناول العشاء.» وبدأ

يتجول في المنزل ويقوم ببعض المهام التافهة في اضطراب، كما كانت عادته عند حدوث أي تغيير في روتينه المعتاد. غابت الشمس في مشهدٍ مهيب بين كتل متراكبة من السحاب القرمزي. بهت اللون الذهبي والأحمر تدريجيًّا ليحل الغسق محلهما في أديم السماء، ثم لملمت الشمس أهداب ثوبها إلى الأفق الغربي البعيد. قطع طائر مرعة الغيط صمت المساء بشدوه، وبدا الاضطراب على وجه الكاهن، خرج مرتَين ينظر إلى جانب التل إذ يسدل الظلام أستاره عليه شيئًا فشيئًا، وفي المرتَين عاد إلى المنزل قلقًا. قدمت السيدة هينيجر العشاء وقالت للمرة الثانية بنبرة تأنيب: «العشاء جاهز.» فرد الكاهن: «حسنًا، حسنًا.» وصعد إلى الطابق العلوي.

هبط إلى مكتبه وأشعل فتيل مصباح القراءة بعود ثقاب ثم ألقى عود الثقاب في سلة المهملات بدون أن ينتظر ليتأكد من انطفائه. ثم عاد إلى غرفة العشاء وبدأ يتناول طعام العشاء في ارتباك.

(عزيزي القارئ، اقترب أوان وداعنا للكاهن العزيز.)

٤٨

كان السيد جون جوتش يركب حصانه في أحد الطرق المعشوشبة الفاصلة بين محميات سيدر (ولم تكن ثائرته قد هدأت بعدُ على ما لحق بالسلك الشائك)، وبينما كان في طريقه رأى الشخص الوحيد الذي لم يرغب في رؤيته، يتهادى وراء الشجيرات.

صاح السيد جون جوتش باحتداد: «يا للعجب! هذا أكثر مما يُطاق.»

وقف على رِكاب السرج ونادى: «يا رجل، أنت يا من تمشي هناك!»

التفت الملاك مبتسمًا.

قال السيد جون جوتش: «اخرج من الغابة!»

رد الملاك: «لماذا؟»

فتش السيد جون جوتش في معجمه من البذاءات فلم يسعفه، فقال: «تبًّا! اخرج من هذه الغابة!»

اختفت ابتسامة الملاك ووقف بلا حراك وسأل: «لماذا عليَّ الخروج منها؟»

وقف الاثنان لا ينبسان لنصف دقيقةٍ تقريبًا، ثم نزل السيد جون جوتش عن السرج ووقف على الأرض بجوار حصانه.

(تفاديًا للإساءة للملائكة، على القارئ الكريم أن يتذكر هنا أن ملاكنا هذا كان قد أمضى أسبوعًا يستنشق هواءنا المحمَّل بسُم النضال من أجل البقاء، ولم يقتصر تأثير

ذلك على جناحَيه والنور المنبعث من وجهه؛ فقد كان قد أكل الطعام ونام واستيقظ وتعلم معنى الألم، وقطع شوطًا ليس بالهيِّن في طريق الإنسانية. ظلت قسوة هذا العالم وصراعاته تنصبُّ عليه صبًّا طوال زيارته، فنسي سمو جوهره تدريجيًّا.)

قال جوتش: «ترفض الانصراف إذن؟!» ثم بدأ يسحب حصانه بين الشجيرات في اتجاه الملاك. وقف الملاك وقد تقلَّصت كل عضلاته واضطربت أعصابه حتى ارتعش وهو يشاهد عدوه القادم نحوه.

قال جوتش: «اخرج من هذه الغابة!» وتوقف على بعد ثلاث ياردات منه، في حين بدا على وجهه غضبٌ شديدٌ وهو يمسك بزمام الحصان بيد والسوط بالأخرى.

اكتسح الملاك طوفان من المشاعر، وسأل الرجل بصوتٍ خفيضٍ مرتعش: «من أنت؟ من أنت لتأمرني بمغادرة هذا المكان؟ ماذا حل بالعالم وجعل رجلًا مثلك يـ...»

قاطعه جوتش بلهجة تهديد: «أنت ذلك الأبله الذي قطع سلكي الشائك، إذا كنت مصرًّا على أن تعرف من أنا!»

قال الملاك: «سلكك الشائك؟! أكنت أنت من وضعه؟ بأي حق تفعل ذلك؟»

قال جوتش لاهثًا: «دعك من هذا الهراء الاشتراكي، هذه الغابة ملكي، ومن حقي حمايتها بكل الطرق، أعرف أمثالك من الحثالة الذين يسيئون الحديث ويثيرون سخط الناس، وإذا لم تنصرف من هنا على الفور ...»

قال الملاك والتحفز ينضح منه: «ماذا إذن؟»

قال جوتش: «اخرج من الغابة اللعينة!» قالها وهو ينظر منبهرًا بالنور المنبعث من وجه الملاك.

خطا جوتش خطوةً واحدة باتجاهه رافعًا السوط، ثم حدث شيء لم يفهمه هو ولا الملاك جيدًا؛ بدا أن الملاك قفز إلى الهواء، ولوَّح بجناحَين رماديَّين نحو الإقطاعي جوتش. رأى الإقطاعي وجهًا ينضح بجمالٍ شديد يعكره غضبٌ عارم يرمقه من علٍ، وانتُزع سوطه من يده، وتراجع حصانه من خلفه وجذبه حتى انفك زمامه من يده وفرَّ الحصان هاربًا.

نزل السوط على وجهه وهو يسقط على الأرض، ونزلت جَلدةٌ أخرى على وجهه وهو يعتدل في جلسته على الأرض. رأى الملاك تتفجر منه براكين الغضب ويوشك على توجيه ضربةٍ جديدة، فرفع يدَيه يحتمي بهما، واندفع إلى الأمام لتفادي ضربة كادت تصيب عينَيه، وتدحرج على الأرض في حين انهالت عليه الضربات في ثورةٍ عارمة.

صاح الملاك: «أيها الهمجي!» وهو يضرب بلا هوادة على أي جزء يطاله السوط، وقال: «أيها الكائن الوحشي المتعالي الكذوب! لقد طمست أرواح بشرٍ آخرين، أيها الأبله الضحل التفكير المتباهي بخيلك وكلابك! إياك أن تؤذي كائنًا حيًّا مرةً أخرى! تعلَّمْ! تعلَّم! تعلَّم!»

أطلق جوتش صيحات استغاثة، وحاول القيام على قدمَيه مرتَين، لكنه كان لا يكاد ينهض على ركبتَيه حتى ينهال عليه غضب الملاك فيسقط مجددًا، وبعد لحظات أصدر من حلقه صوتًا غريبًا، وتوقف عن التلوِّي تحت ضربات السوط.

وفجأة استعاد الملاك وعيه بعد أن هدأت ثورته، فوجد نفسه يقف لاهثًا مرتعشًا، واضعًا إحدى قدميه على جسد لا يتحرك في الغابة المترعة بنور الشمس.

نظر حوله، ثم إلى قدمَيه، فوجد بين أوراق الشجر الذابلة شعرًا مضرجًا بالدماء. سقط السوط من يدَيه، واختفت من وجهه ثورة الغضب.

قال الملاك: «الألم! لكن ... لماذا يستلقي هكذا بلا حراك؟»

رفع قدمه عن كتف جوتش، وانحنى نحوه، ووقف ينصت، ثم جثا وهزَّه وقال: «استيقظ!» ثم كررها بصوت أرق: «استيقظ!»

ظل كما هو لعدة دقائق يحاول أن يسمع أي صوت، ثم هبَّ واقفًا ونظر إلى الأشجار الساكنة من حوله. دهمه شعور بالخوف الشديد، طوَّقه وسيطر على كيانه كله، فهمس مخاطبًا نفسه في رعب: «ماذا جرى لي؟»

نظر إلى الجسم الساكن وقال فجأة: «الموت!» ثم التفت مذعورًا وفرَّ من بين أشجار الغابة.

٤٩

ظن الملاك أن جوتش قد مات، فمضى بين أشجار الغابة وشجيراتها الكثيفة بطول المستنقع يكابد ندمًا وخوفًا عظيمَين. روَّعه ذلك الدليل الحاسم الأخير على إنسانيته الطاغية إلى حد يفوق التخيل. حشدت الحياة كل ما فيها من ظلام وغضب وألم ضده في جيشٍ واحدٍ جرَّارٍ داهمه حتى زلزل كيانه وقيده إلى كل ما كان يراه منذ أسبوع غرائب جديرة بالرثاء تصم نفوس البشر.

خاطب نفسه: «هذا العالم لا يصلح للملائكة حقًّا! إنه عالمٌ من الحرب والألم والموت، يتملَّك الغضب فيه المرء ... ها أنا أقف ويداي ملوثتان بالدماء وأنا من لم يعرف الألم والغضب من قبلُ. لقد سقطتُ، سقطت في هذا العالم، حيث الجوع والعطش والرغبات

الكثيرة المعذِّبة. لا بد للمرء من القتال للحصول على موطئ قدم، لا بد من الغضب وإنزال الضربات.»

رفع يدَيه إلى السماء، وارتسمت على وجهه أقصى درجات الندم وانعدام الحيلة، ثم هوت يداه مجددًا إلى قاعٍ سحيق من اليأس. شعر أن أسوار السجن الضيق الذي يسمونه الحياة تزحف نحوه من كل جانب بوتيرةٍ ثابتة لتسحقه تمامًا في النهاية. شعر بما يشعر به كل الفانين البائسين عاجلًا أو آجلًا؛ سطوة الأمور الحتمية التي لا ترحم، تارة تداهمنا من خارجنا، وتارة تنبع من داخلنا (حيث تكمن المؤرقات الكبرى)، وبالعذاب الذي تصبُّه علينا مُثلنا العليا فلا نستطيع منه فكاكًا عندما تُرغمنا الحياة على تناسي أفضل صورة من صور ذواتنا. بيد أن ذلك الانهيار يحدث لنا، معشر البشر، شيئًا فشيئًا، نهبط إلى الحضيض درجةً تلو الأخرى بمرور السنين الطوال بدون أن ننتبه، أما هو فقد اختصر طريق الانهيار في أسبوعٍ واحدٍ قصير. شعر بأن هذه الحياة أعاقته وطمست كيانه وأعمت بصره وبصيرته بأمرها النافذ. شعر بغصة المسموم بسمٍّ زعاف، وبامتداد الدمار إلى كل ركن في كيانه.

لم يلقِ بالًا للجوع أو التعب ولم يشعر بمرور الوقت، بل ظل يهيم على وجهه شارد الذهن، يتجنَّب المنازل والطرقات، ويبتعد كلما رأى شخصًا أو سمع صوت بشر من بعيد، مضى يجادل قدره جدالًا محتدمًا ولو لم ينبس فيه بكلمة. لم تتدفق في عقله الأفكار بل سكنت وتجمدت احتجاجًا على ما حلَّ به من انحطاط. وجهت الصدفة خطاه نحو المنزل حتى انتهى به المطاف بعد حلول الليل عند المستنقع خلف سيدرمورتون وقد خارت قواه وتعثرت خطاه وتجسد فيه البؤس. سمع صوت الفئران العابثة بين نباتات الخلنج، وفجأة ظهر في الظلام طائرٌ ساكنٌ ضخم، مرَّ سريعًا ثم اختفى. ورأى الملاك أمامه في السماء وميضًا أحمر قاتمًا لم يعره انتباهًا.

٥٠

عندما وصل إلى المستنقع، ظهر أمامه ضوءٌ ساطع يصعب تجاهله. فهبط التل ولم يلبث أن رأى مصدر الضوء بوضوح أكبر؛ ألسنة لهبٍ ذهبية وحمراء تتطاير وتندفع من نوافذ منزل الكاهن ومن كوة في سقفه. ورأى على خلفية النار المستعرة رءوسًا سوداء كثيرة للأهالي المحتشدين، كل أهل القرية تقريبًا احتشدوا عند المنزل، أما فرقة الإطفاء فكان أفرادها عند منزل إيلمر يحاولون العثور على مفتاح آلة الإطفاء. تداخل صوت لظى النار

مع همهمات الناس، ثم قطعت هذه الأصوات كلها صرخةٌ مريرة، وصاح شخص ما: «لا! لا! عودي!» وسُمع هدير لم يتضح مصدره.

ركض الملاك نحو المنزل المستعر، وتعثر وكاد يسقط، لكنه واصل طريقه. وجد حوله أشخاصًا لم يتبيَّنهم يهرعون. وظلت ألسنة اللهب تتطاير في كل اتجاه، وأزكمت رائحة الحريق أنفه.

قال شخص: «لقد دخلت، دخلت.»

رد آخر: «مجنونة!»

وصاح آخرون: «تراجعوا! تراجعوا!»

وجد نفسه يشق طريقه بصعوبة بين حشد متزاحم مضطرب من الأهالي الذين تعلقت عيونهم بألسنة اللهب فانعكست على حدقاتهم حُمرتها.

قال أحد العمال وهو يمسك به: «تراجعوا!»

سأل الملاك: «ما الخطب؟ ماذا يعني هذا؟»

قال العامل: «هناك فتاة في المنزل، ولا يمكنها الخروج!»

قال أحد المحتشدين: «دخلت لتأخذ آلة كمان.»

وقال آخر: «لا جدوى من ذلك.»

قال ثالث: «كنت أقف بالقرب منها، سمعتها تقول: «يمكنني إنقاذ كمانه.» سمعتها، قالت: «يمكنني إنقاذ كمانه».»

وقف الملاك يحدق للحظة، ثم تراءى له كل شيء فجأة؛ رأى هذا العالم الصغير الكئيب الذي لا يعرف إلا القسوة والقتال وقد تحول فجأة فاكتسى روعةً تفوق روعة أرض الملائكة، وامتلأ عظمةً ونورًا مصدرهما الحب والفداء. أطلق صيحةً غريبة، ثم ركض نحو المنزل المشتعل ولم يتمكن أحد من إيقافه. سُمع أحد يصيح: «الأحدب! الغريب!»

كان أحد المحتشدين يضمد يد الكاهن بعد أن طالها الحريق، وبينما كان الكاهن منشغلًا بإصابة يده التفت فرأى الملاك، ورآه كرامب كذلك، لم يبدُ منه إلا لون أسود يخوض بين النيران المستعرة الحمراء في المدخل. حدث الأمر في جزء من الثانية، بيد أن الرجلَين لم يكن لهما أن يتذكرا المشهد نفسه بالتفاصيل نفسها لو كان صورة عكفا على دراستها معًا لساعات. وفجأة اختفى الملاك وراء شيءٍ ساطعٍ ضخم (لم يتبيَّنه أحد) سقط في المدخل.

سُمعت صرخةٌ واحدة باسم: «ديليا»، ثم انفجرت من النار فجأة ألسنة عملاقة متطاولة من اللهب أعمت العيون، وصدر وهجٌ شديد يتخلَّله الكثير من الأشعة المتطايرة

كالتماع أنصال سيوف مُسلَّطة. وانطلق شررٌ مضيء متعدد الألوان إلى السماء ثم اختفى. وعندئذٍ حدث شيءٌ غريب؛ تداخل مع صوت استعار النار نغمٌ موسيقيٌّ غريب يصدُر من آلة الأورغن.

سمع كل أهل القرية المحتشدين الموسيقى عدا الأصم جافر سيدونز، كان نغمًا غريبًا وجميلًا، ظهر ثم لم يلبث أن اختفى. قال لامبي دورجان، أبله سيدرفورد، إن الصوت ظهر واختفى كصوت فتح باب ثم غلقه.

أما هيتي بنزانس الصغيرة، فقد صور لها خيالها مشهدًا جميلًا فيه كائنان مجنحان ومضا بين ألسنة اللهب ثم اختفيا.

(وظلت فيما بعدُ تتوق إلى الخيالات التي حلمت بها، وولعت بالأفكار المجردة الغريبة حتى رثت أمها لحالها. وهزلت الصغيرة حتى بدا أنها توشك على الاختفاء من هذا العالم، وبدت في عينَيها نظرة إلى الأفق البعيد. وظلت تتحدث عن الملائكة وألوان قوس قزح والأجنحة الذهبية، وتدندن بأنغامٍ غريبة لم يعرفها أحد، حتى عالجها كرامب بأن وصف لها نظامًا غذائيًّا يقيم أودها، وشرابًا من مركبات الفوسفات وزيت كبد الحوت.)

٥١

بعد أن اختفى صوت خطوات الملاك بدقائق، نهض جوتش مستندًا إلى يده. وقال: «يا إلهي! كرامب محقٌّ!

وجرح في رأسي أيضًا!»

وضع يده على وجهه وتحسس كدمتَين كبيرتَين وساخنتَين فيه. خاطب نفسه: «سأفكر مليًّا قبل أن أرفع يدي على مجنون مرةً أخرى.

ربما كان معتل العقل، لكن أقسم أن ذراعه قوية. يا للعجب، لقد جرح طرف أذني بذلك السوط اللعين حتى انفصل تمامًا.

سيركض ذلك الحصان اللعين إلى المنزل ويدخله في مشهدٍ دراميٍّ حافل، ستفقد زوجتي صوابها من الذعر، ستُمطرني بالأسئلة وسيكون عليَّ أن أشرح كيف حدث ذلك كله.

لا بد أن أتزود ببعض الأسلحة وأن أثبت بعض الأفخاخ في هذه المحمية، وليذهب القانون إلى الجحيم!»

خاتمة

٥٢

كانت هذه قصة الزيارة الرائعة، وخاتمتها على لسان السيدة ميندام، كان هناك صليبان أبيضان صغيران متقاربان على الجدار الحجري المزدان بنبات العليق في ساحة كنيسة سيدرمورتون، ونقش أحد الصليبين باسم توماس آنجيل والآخر باسم ديليا هاردي، وكانا يحملان نفس تاريخ الوفاة. لم يكن تحت الصليبين إلا رماد نعامةٍ محنَّطة من مقتنيات الكاهن (تَذكَّرْ ولع الكاهن بالطيور). لاحظتُهما عندما كانت السيدة ميندام تعرض عليَّ أثرًا جديدًا تركه دو لا بيش (كان ميندام قد أصبح كاهن القرية بعد وفاة هيليار)، قالت السيدة ميندام: «الجرانيت من مكانٍ ما في اسكتلندا، وتكلَّف ثمنًا باهظًا لم أعد أتذكره! لكنه مثار الحديث في القرية.»

نبهت سيسي ميندام أمها: «أمي، إنك تدوسين على قبر.»

قالت السيدة ميندام: «يا إلهي! هذا استهتار منِّي! الأنكى أنه قبر المعاق. لكن على أي حال لا يمكنك تخيُّل التكلفة التي تكبدوها.»

واصلت السيدة ميندام: «بالمناسبة، هذان الشخصان قُتلا في حريق منزل الكاهن القديم، كانت قصةً غريبة. كان الرجل شخصًا غريب الأطوار، عازف كمان أحدب لم يعرف أحد مسقط رأسه، لكن سيطر على الكاهن وأثر فيه بشدة. كان يعزف الكمان سماعيًّا، واكتشفنا لاحقًا أنه لا يعرف شيئًا عن النوتة الموسيقية. افتُضح أمره أمام جمع من الناس. دارت حوله حكاياتٌ كثيرة، منها أنه كان على ما يبدو يعبث مع إحدى الخادمات، كان فتًى خبيثًا، يحسن أن يخبرك ميندام بباقي القصة. كان معتل العقل وفي جسمه تشوُّه غريب. أثار في ذهن بعض الفتيات خيالاتٍ غريبة.»

نظرت إلى سيسي بحدة، فوجدت في عينَيها خجلًا.

واصلت: «تُركتْ في المنزل، فاقتحم النيران محاولًا إنقاذها، رومانسيٌّ جدًّا، أليس كذلك؟ كان بارعًا في عزف الكمان على طريقته التي لم يصقلها تعليم.»

«كل مقتنيات الكاهن من الكائنات المحنطة احترقت في الوقت ذاته. كانت هذه الكائنات شغله الشاغل، لم يتجاوز تلك الصدمة قط. ولما لم يكن في القرية منزلٌ آخر يمكنه المكوث فيه انتقل للإقامة معنا، بيد أنه لم يبدُ سعيدًا، بل بدا مهتزًّا، لم أرَ تغييرًا مثل ذلك على رجل قطُّ، حاولت الترويح عنه لكن بلا جدوى على الإطلاق. كانت تراوحه أوهامٌ غريبة عن الملائكة وأشياء من هذا القبيل، فأصبحت مرافقته غريبة في بعض الأحيان، فمثلًا كان يقول إنه يسمع صوت موسيقى ويحدق في الفراغ ببلاهة لساعات، كما أهمل ملبسه تمامًا، مات بعد الحريق بسنة.»

هنـــداوي